

البحث الثاني :

” علم الأخلاق بين المبدأ والتطبيق من منظور الأصول الإسلامية للتربية ”

إعداد :

د/مأمون بن صالح بن محمد النعمان

الأستاذ المساعد بقسم أصول التربية

كلية التربية جامعة طيبة بالمدينة المنورة

” علم الأخلاق بين المبدأ والتطبيق من منظور الأصول الإسلامية للتربية ”

د/ مأمون بن صالح بن محمد النعمان

• مستخلص الدراسة :

كثيرون الذين كتبوا في علم الأخلاق قديماً وحديثاً، والباعث على هذه الدراسة أن يساهم الباحث مع الآخرين بدراسة علمية يتوخى أن تكون دافعا للالتزام والتطبيق ، فبدأ بتمهيد يعرف فيه بعلم الأخلاق وأهميته ومنزلته عند الله وعند الراشدين من الناس، لتصبح هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير فكر ولا روية، أي قوة راسخة في الإرادة، تنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصلاح (إن كان الخلق حميدا) أو إلى اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميما). وتناول الباحث موضوع علم الأخلاق وأنه يتعلق بالأعمال الإرادية للإنسان، وأن علم الأخلاق ينقسم إلى نظري وعملي، وتساءل الباحث هل يعتبر علم الأخلاق وسيلة تامة في التربية الخلقية ؟ وما هي الفائدة التي نرتجئها والغاية التي نبتغيها من هذا النوع من الدراسة العلمية لعلم الأخلاق ؟ أجاب الباحث بالأدلة الدامغة أن هذا النوع من الدراسة العلمية لعلم الأخلاق هو ضرورة الحياة العملية، عند كل حركة أو سكون، وعند كل هم بفعل أو قول أو نية ، وأن دراسة الأخلاق وسيلة ناجحة من وسائل التربية والتهديب، لأن البحث في الفضائل وحسن عاقبتها، والتعرف على الرذائل وسوء مغبتها، ودراسة نماذج للمثل الأعلى من أهل الفضيلة والتخلي عن الرذيلة، ولا ينكر أحد ما لقوة الإغراء والاستهواء من أثر كبير، وأن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية، والإصابة في الحكم عليها، بعد أن وقف على معاني الخير والشر وما إليها، وعرف المقاييس الأخلاقية التي تقاس بها الأعمال المختلفة . ولخص الغاية من دراسة الأخلاق بأن: دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها وتقديرها حق قدرها، دون أن يخضع في حكمه إلى إلف أو عادة . (تقوية الضمير) . وبها تقوى الإرادة على عمل الخير وسلوك السنن القويم، وتنشط العزيمة للمضي في سبيل الفضيلة واتخاذها نبراسا في أعمالها . (تقوية الإرادة) . ومع أن دراسة الأخلاق وسيلة ناجحة للتربية والتهديب، إلا أنها مع ذلك لا يمكن أن تجعل جميع الناس أحيارا، لأن ذلك يتوقف على عوامل متعددة منها: الوراثة، والتنشئة الاجتماعية، والاستعداد الشخصي.. ولكن كفاها فضلا أنها تهدينا إلى الصراط المستقيم . ويريد الباحث أن يؤكد فكرة طامنا احتدم الجدل حولها وهي أن الأخلاق لا تورث بل تكتسب ، وأن الطفل يولد على الفطرة السوية، أي الخلقة السوية، وهي (السلامة)، أي يولد صفحة بيضاء ، سليما من الأديان والأخلاق والتربية والتعليم، وعنده القابلية للتلقي، فلا يرث ما سبق ذكره وإنما يكتسبه عن طريق (التنشئة الاجتماعية) ، وفي هذا بيان هام في إمكانية التغيير ، فكما اكتسبها يمكن تغييرها وترويضها .وبين الباحث أهم الفوارق الجوهرية بين الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية والضمير أو الحس الأخلاقي أو القلب وتعريفه ووجوده ودوره ومراحل عمله ، وأحكامه ومراتبه وعوامل تقويته وإضعافه وعوامل إفساده ، ومنهج الإسلام في تربية الضمير وتركيب النفس وموقفه من الدوافع النفسية ، وموقف أعداء الإسلام من الأخلاق الإسلامية ، ثم الخاتمة في بيان علاقة علم الأخلاق بالتربية . والله الموفق .

Abstract

Many of those who wrote in the science of morality , past and present , and the motive for this study can contribute researcher with others studying the scientific envisaged to be a motivation for the commitment and application, began paving knows the science of morality and its importance and stature with God, and when adult people , to become the well-established in the arts, issued by the acts easily and conveniently , without thought or deliberately , any well-established in the will power , tend to choose what is good and Salah (the was benign creation) or to choose what is evil and Gore (if creation Zmama) The researcher addressed the theme of

ethics and it relates to the voluntary work of man , and that ethics is divided into theoretical and practical , and wondered Researcher Is Ethics way full in congenital education ? What are interest Nrtjeha by the end that Neptgaha of this kind of scientific study of ethics ? Answered researcher evidence irrefutable that this kind of scientific study of ethics is a necessity of life process, when every movement or stillness , when all they act or say or faith, and that the study of ethics and successful way of the means of education and discipline , because the search in the virtues and good Consequence , and to identify the vices and bad Mgbtha , study models , such as the top of the people of virtue in our lives, and showing a lead themselves good in our history, every so impressed learner and tempted outward appearances of virtue and abandon vice, does not deny one the force of temptation and Alasthua of a significant impact , and that the study of ethics earn its owner accuracy in estimating ethical business , judged by injury , after a stop on the meaning of good and evil , etc. , and knew the ethical standards that are measured by different business . Summed up the purpose of the study of ethics that :1 Study Ethics owner the ability to earn Business scrutiny and criticism and appreciation of right , without equivalents are subject to a thousand or a habit. (Strengthening of conscience) .2 and strengthens the will to do good and conduct True Sunan , and active determination to move for the sake of virtue and taken a beacon in their work. (Strengthening the will) .Although the study of ethics and successful way of breeding and cultivation , but it nevertheless can not make all people Okhiara , because it depends on several factors including: genetics , socialization , and personal preparedness .. But It is enough as well they Guides to the straight path .And wants to researcher to confirm the idea as long as heated controversy around is that morality is not inherited but is gaining , and that child is born on instinct normal , any texture normal , a (safety) , which generates a blank page , a sound of religions and ethics and education , and has a capability to receive, not inherits the foregoing , but acquired through socialization , and this is an important statement in the possibility of change ,as he gained can be changed and tamed . And between the researcher most important differences core between ethics philosophical and religious morality and conscience or moral sense or heart and its definition and existence , role and stages of his work, and its provisions and steps factors strengthen and weaken factors Corruption , and the methodology of Islam in the education of conscience and Islam self and his motives psychological , and the position of the enemies of Islam of Islamic morality , then Conclusion in a statement relationship ethics education . And God bless .

• مقدمة :

• تعريف علم الأخلاق :

الأخلاق: جمع خلق، قال ابن منظور (د.ت): «والخلق الخليفة أعني الطبيعة. وفي التنزيل: ﴿وَأَنْكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ﴾ (٤) (سورة القلم) ؛ وَالْجَمْعُ أَخْلَاقٌ، لَا يَكْسُرُ عَلَيَّ غَيْرَ ذَلِكَ... وَالْخَلْقُ وَالْجُلُقُ: السَّجِيَّةُ . وفي الحديث: ﴿لَيْسَ شَيْءٌ فِي الْمِيزَانِ أَنْقَلَّ مِنْ حُسْنِ الْخَلْقِ﴾ (رواه الترمذي ، ووصحه الألباني في السلسلة الصحيحة: رقم ٨٧٦) ، والخلق، بضم اللام وسكونها: وهو الدين والطبع والسجية، وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها

وَمَعَانِيهَا؛ وَلَهُمَا أَوْصَافٌ حَسَنَةٌ وَقَبِيحَةٌ، وَالثَّوَابُ وَالْعِقَابُ يَتَعَلَّقَانِ بِأَوْصَافِ الصُّورَةِ الْبَاطِنَةِ أَكْثَرَ مِمَّا يَتَعَلَّقَانِ بِأَوْصَافِ الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ، وَلِهَذَا تَكَرَّرَتْ الْأَحَادِيثُ فِي مَدْحِ حُسْنِ الْخُلُقِ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ كَقَوْلِهِ: ﴿ أَكْمَلَ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنَهُمْ خُلُقًا ﴾ (رواه أحمد وأصحاب السنن، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: رقم ٢٨٤)، وَقَوْلُهُ: ﴿بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ ﴾ (رواه البيهقي في السنن الكبرى: ج ١٠، ص ١٩٢، وأورده الهيتمي في الزوائد بلفظ: صالح الأخلاق وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح: ج ٩، ص ١٥)، وَكَذَلِكَ جَاءَتْ فِي دَمِّ سَوْءِ الْخُلُقِ أَيْضًا أَحَادِيثٌ كَثِيرَةٌ... ﴿ (ج ١٠، ص ٨٧٨٦) .

ويرجع معناه في اللغة العربية إلى معنى "العادة"، قال ابن منظور: «وَأَشْتَقَاقُ خَلِيقٍ وَمَا أَخْلَقَهُ مِنَ الْخِلَاقَةِ، وَهِيَ التَّمْرِينُ؛ مِنْ ذَلِكَ أَنْ تَقُولَ لِلَّذِي قَدْ أَلْفَ شَيْئًا صَارَ ذَلِكَ لَهُ خُلُقًا أَيْ مَرَّنَ عَلَيْهِ، وَمِنْ ذَلِكَ الْخُلُقِ الْحَسَنُ» (ج ١٠، ص ٩١).

ومن أجل هذا عرفه بعض العلماء بأنه: "علم العادات" ولكنه تعريف يحتاج إلى الدقة؛ لأن علم الأخلاق لا يبحث في أعمال الناس الإرادية التي صارت "عادات وتقاليد" على اختلافها، وإنما يبحث في توجيهها الطريق السوي طبقاً لقواعده وقوانينه، وفي الحكم لها أو عليها، حسب مقاييس الخير التي يضعها.

ولما كانت "أعمال الإنسان الإرادية" هي مناط البحث والحكم الأخلاقي، عرفه بعض الباحثين بقوله: "الأخلاق: علم الإنسان"، ولكننا لا نرضى بهذا التعريف؛ لأنه يتسع حتى يتناول "العلوم الإنسانية" المتعددة، التي تتخذ الإنسان . من نواحيه المادية أو المعنوية . محورا لبحوثها .

ومن التعريفات التي ذكرها أنه: "علم الخير والإرشاد إليه"، لأن مبحث الخير هو الغاية التي يسعى إليها الخلق، وأنه "علم الخير والشر" لأنه يفصل معنى كل منهما ويميز بينهما، وأنه "دراسة الواجب والتواجبات"، لأنه يعرفنا الواجب الذي ننزل على حكمه فيما نفعل ونترك، ويهديننا لتواجباتنا نحو أنفسنا وغيرنا وخالفنا.

وهذه التعريفات كلها لا تكفي؛ لأن دراسة الخير والشر لا يغني عن دراسة الواجب الذي نسير على هديه، ولا عن معرفة التواجبات التي يجب علينا أن نقوم بها . ودراسة الواجب والتواجبات كذلك لا تكفي لتحديد الأخلاق التي تبحث أيضا في الخير والشر، وماهية كل منهما، والمقاييس التي نريد بها الأعمال لبيان خيرها وشرها .

ولربما يصح أن نطلق على علم الأخلاق أنه علم المبادئ المستمدة من الكتاب والسنة، والقواعد التي تحمل مراعاتها المرء على فعل الخير وتجنب الشر، ويصل بالعمل بها للمثل الأعلى للحياة.

أو: علم القواعد الشرعية التي تسيير عليها إرادة المرء الكامل في أعماله ليصل للمثل الأعلى للحياة. ذلك أن علم الأخلاق علم مثالي معياري، وهو لا يبحث في أعمال الناس على ما هي عليه في الواقع، لأنه ليس علما وصفيا كعلم النفس مثلا؛ وإنما يبحث في أعمال الناس على ما يجب أن تكون عليه، أي في الحياة التي يجب أن يحيوها ليحققوا ما خلقوا له من الكمال.

وعلم الأخلاق لا يبحث في الأعمال الإنسانية من حيث القوانين التي تجري على سننها ، فذلك دور العلوم الطبيعية، ولا من حيث إقرار الجماعة التي يعيش المرء بينها، أو إهدارها إياها، فذلك بحث القانون .. ولا من ناحية ما رتب عليها من ثواب أو عقاب في الدنيا والآخرة، فذلك بحث العلوم الدينية ؛ وإنما يبحث علم الأخلاق في أعمال الإنسان الإرادية من ناحية توجيهها إلى ما يحقق سعادته في الدنيا والآخرة، ومن ناحية مطابقتها للخير أو الشر، وفي توضيح معنى كل منهما، من وجهة نظر الشرع، فهما شرعيان وليسا عقليين . وهو بهذا يهدينا سواء السبيل، ويرشدنا إلى الغاية التي يجب أن نقصدها من أعمالنا . (جاد المولى: ج١، ص٩).

قال ابن مسكويه (ت/٤٢١هـ) في مقدمة كتابه تهذيب الأخلاق: « غرضنا في هذا الكتاب أن نحصل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة ، وتكون مع ذلك سهلة علينا ، لا كلفة فيها ولا مشقة » ويقول معرفاً للخلق: « الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية » (ص١٠) . وزاد الغزالي (ت/٥٠٥هـ) هذا التعريف بسطاً في كتابه الإحياء ١٤٠٠هـ فقال: « يقال فلان حسن الخلق والخلق، أي حسن الظاهر والباطن .. فالخلق عبارة عن هيئة راسخة في النفس، تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر، من غير فكر ولا روية» (مجلد ٣، ج٨، ص٩٦) .

• الخلق إذن : هيئة أو صفة النفس :

غير أن للنفس قوى مختلفة، ووظائف متنوعة، فهناك ملكات الإدراك والتفكير والحكم والتخيل، والتذكر، وهناك الوجدانات والانفعالات، وهناك الغرائز والنزعات.. فإذا كانت هذه القوى النفسية كلها تصدر عنها آثارها في سهولة ويسر، هل يسوغ لنا أن نسمي شيئاً منها خلقاً؟ .. كلا

نحن بحاجة إذن: إلى مزيد من إيضاح وتحديد، تتميز به حقيقة المقصود من هذه التسمية، وينجلي به الإبهام الذي تنطوي عليه التعريفات السابقة.

ونبادر فنقول: إن الخلق ليس صفة للنفس في جملتها، ولكن في جانب معين من جوانبها، وليس هذا الجانب هو جانب العقل والمعرفة، ولا جانب الشعور والعاطفة، وإنما هو جانب القصد والإرادة. ونضيف إلى هذا التقييد تقييداً آخر فنقول: إن الخلق يتعلق بنوع خاص من الأهداف الإرادية، وهو تلك الأهداف التي ينشأ عن اختيارها وصف يعود إلى النفس بأنها خيرة أو شريرة، ومن هاتين الخاصيتين نستطيع أن ننظم التعريف التالي: الخلق هو قوة راسخة في الإرادة وتنزع بها إلى اختيار ما هو خير وصالح (إن كان الخلق حميداً) أو إلى اختيار ما هو شر وجور (إن كان الخلق ذميماً) .

هكذا تتميز الحقيقة الخلقية عما عداها من الصفات النفسية : ألا ترى أن جودة الذاكرة أو ضعفها ، وسلامة الذوق أو سقمه ، وبراعة الخيال أو تبدله ، وحدة الذهن أو تبدله ، لا مدخل لها في موازين الأخلاق ، ولا يسري منها الحكم على صاحبها بأنه بر أو فاجر ، نقي أو آثم ؟ نعم إذا استعملت هذه الملكات قصداً أو عمداً ، بنية إصلاح أو إفساد كان هذا الاستعمال نفسه داخلاً تحت سلطان القانون الأخلاقي من حيث هو عمل الإرادة ، لا من وجه آخر .

ثم ألا ترى أن من الأعمال الإرادية نفسها طائفة يستوي فعلها وتركها ، فتدخل بذلك في نطاق المباحات ، بحيث لا يترتب على فعلها مدح ولا ذم ، ولا يقال لصاحبها إنه أحسن أو أساء ؟ فهي خارجة أيضا عن موضوع البحث . وكذلك الأعمال الإرادية التي يترتب عليها مدح أو ذم ، بمعناها الأدبي أو الفني ، كإجادة البيان ، وإتقان التصوير ، أو إساءتهما ، فهناك يكون المدح والقدح ، والإحسان والإساءة ، أحكاما تشابه في صورتها الأحكام الأخلاقية ، ولكنها في المعنى ليست منها بسبيل ، لأن الذي لا يحسن التعبير أو التصوير لا يقال إنه آثم أو شيرير .

هذا وينبغي ألا يشتبه علينا الفرق بين الخلق والسلوك ، فالخلق كما قلنا أمر معنوي ، وهو صفة النفس وسجيتها ، أما السلوك فهو أسلوب الأعمال ونهجها وعادتها ، وما هو إلا مظهر الخلق ومرآته ودليله .

وأنه لكي تكون الأفعال علامة صحيحة على خلق صاحبها ؛ لا بد أن يجتمع فيها عنصران :

(أحدهما) أن تتكرر الأفعال على نسق معين حتى تكون عادة مستقرة ، وحتى تدل على قوة راسخة ونزعة ثابتة إلى هذه الأفعال ، فإن الذي يدل على خلق المرء هو جملة تصرفاته في عامة الأوقات والأحوال المختلفة لا في النادر منها .

(الثاني) أن تقوم الأمارات على أن هذه الأفعال صادرة بطريقة انبعائية عن النفس ، وليست أثرا لأسباب خارجية ، من الخوف أو الرجاء أو الحياء أو الرياء أو نحوها ، مما يجعل صدور الأعمال تكلفا وتصنعا على خلاف سجية صاحبها ، ويجعلنا نحكم بأن خلقه الحقيقي على النقيض مما يوحي به ظاهر هذه الأفعال .

وكما تتجلى العادات المستقرة في ثوب إيجابي ، قد تبدو لنا في صورة سلبية . وهنا أيضا ينبغي أن نكون في يقظة وحذر عند إصدار أحكامنا ، إذ قد يخفى علينا الخلق الحقيقي لعدم البواعث والأسباب التي تقتضي ظهوره ، كالفقير الذي لا يجد ما ينفقه مع أن في نفسه نزعة البذل والسخاء ، فلا نحكم عليه بالبخل لمجرد عدم إنفاقه ، وكالشهيد الذي لا يجد ما يتناوله فلا نحكم عليه بالعفة حتى تنهيا الملابس التي تبدي لنا كامن سجيته وشيمته .

سيقول قائل: إذا كان خلق الإنسان كما ذكرتم هو مزاج روحه ، وهيئة نفسه الراسخة فيها على غرار الصورة الخلقية لبدنه ، ألا يكون ذلك اعترافا من أول الأمر بأن الأخلاق فطرية دائما ، لا سبيل إلى تغيير ما وجد منها ، ولا إلى اكتساب ما ليس بحاصل فيها . وهذا الاعتراف ينطبق بلا ريب على بعض وجوه النظر في المسألة ، ولكنه لا يساير جملة المذاهب فيها . فإذا سألتهموه أصبح على الأخلاق وليس له موضوع متفق عليه ، مسلم الثبوت في نفسه ؟

نقول: كلا إن التعريفات المذكورة للخلق لا تنطوي على الاعتراف بشيء من هذه اللوازم ، ذلك أننا نسمي خلقا: كل قوة إرادية راسخة ، نزاعة إلى الخير أو الشر ، سواء أكان هذا الرسوخ في كل أحواله من عمل الفطرة والجبلة ليس غير ، كما يقول أهل الجبر ، أم كان يحصل تارة بالجبلة والغريزة ، وتارة

بالكسب والرياضة ، كما يقول غيرهم . فهاهنا إذن: مذهبان ، يجمل بنا تعرفهما
وبسط وجهه نظرهما :

فأما غلاة أهل الجبر ، فهذا نموذج من أقوالهم :

يقول (آرثر شوبنهاور Arthur Schopenhauer) الفيلسوف الألماني (ت/١٨٦٠م)
المعروف بفلسفته التشاؤمية: يولد الناس أحيارا أو أشرا ، كما يولد الحمل
وديدعا والنمر مفترسا ، وليس لعلم الأخلاق إلا أن يصف سيرة الناس
وعواندهم، كما يصف التاريخ الطبيعي حياة الحيوان .

ويقول (إيمانويل كانت Immanuel Kant) الفيلسوف الألماني (ت/١٨٠٤م):
إن الذي يساعد موقف الإنسان في ظرف معين ، ويعرف سوابق تصرفاته في مثل
هذا الموقف ؛ يستطيع أن يتنبأ تنبؤا صادقا بما سيفعله في هذا الظرف المعين ،
كما يتنبأ العالم الفلكي بكسوف الشمس وخسوف القمر في ساعة محده ...

ويقول (باروخ سبينوزا Baruch Spinoza) الفيلسوف الهولندي (ت/١٦٧٧م):
إن أفعال الناس كغيرها من سائر الظواهر الطبيعية ، تحدث ويمكن استنتاجها
بالضرورة المنطقية الهندسية ، كما يستنتج من طبيعة المثلث أن زواياه الثلاث
تساوي زاويتين قائمتين .

ويقول (لوسيان ليفي بريل Lucien Levy Brill) الفيلسوف الفرنسي
(ت/١٩٣٩م): إن ميولنا الحسنة أو القبيحة التي نجىء بها إلى هذا العالم عند
ولادتنا هي طبيعتنا ، فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هي ليست من عملنا ، أو
على الأقل ليست من عملنا الشعوري الاختياري ؟

ويقول (ديفيد هيوم David Hume) الفيلسوف الانجليزي (ت/١٧٧٦م): إن
شعورنا بالحرية ليس إلا وهما وخداعا .

أولئك فريق من فلاسفة أوروبا ، غلب على عصرهم البحث في القوى المادية
وطبائعها ، ورأوا ما فيها من قوانين علمية ثابتة ، فأرادوا أن يبسطوا نتائجها
على سائر العلوم ، حتى الاجتماعية والأخلاقية ، فهم لذلك يصورون لنا الإرادة
الإنسانية سجيئة في نطاق حديدي من الغرائز والطبائع ، ويصورون لنا البشرية
كلها عاجزة عن التحول والتطور ، فقيم إذن كان إنزال الكتب وإرسال الرسل ؟
وفيم إذن وضعت الشرائع والقوانين ؟ وفيم كان ويكون عمل المؤدبين والمربين ؟
ألا يكون ذلك كله عناء بغير جدوى ؟ أولا تكون دراسة الأخلاق نفسها ملهاة أو
شبه ملهاة ؟

أما أنصار الحرية والتقدم فإنهم لا يرون في هذه المقالات جميعها إلا ضروبا
من الدعوة المجردة ، أو السفسطة المموهة ، الخلط بين موضوع الأخلاق وغيره ،
كما سنبينه فيما يلي: وأول ما نلاحظه على هذه الأقاويل شنودها على إجماع
المفكرين الأسبقين، فإن هؤلاء المفكرين وإن اختلفوا في شأن الفطرة الإنسانية
على مذاهب ثلاثة . سنبينها لاحقا . إلا أنهم من جهة جعلوا هذه الفطرة عامة في
جنس البشر ، فلم يزعموا أنها خيرة في البعض شريرة في البعض ، بل هي إما هذا
وإما ذلك ، وإما كلاهما معا ، وفي الجميع .

ومن جهة أخرى فإنهم اتفقوا ثلاثتهم على قبول هذه الفطرة للتغير والتبدل وذلك إما لامتزاج هذه الفطرة وتركبها (كما في المذهب الثالث) ، وإما لمرونتها وقبولها للانقلاب (كما في المذهبين الأوليين) .

واختلاف المفكرين في شأن الفطرة الإنسانية على مذاهب ثلاثة :

(أحدها): أن الإنسان خير بطبعه ، و الشر عارض له ، وهو مذهب المتفائلين أمثال (جان جاك روسو Jean-Jacques Rousseau) (ت/١٧٧٨م) ، وينسب إلى سقراط والرواقين .

(والثاني): أن الإنسان شرير بطبعه ، والخير طارئ عليه ، وهو مذهب المتشائمين ، كالبودية وأشباههم ، ولعله من هؤلاء سرى إلى الكنيسة المسيحية، حيث ترى أن الإنسان منذ خطيئة آدم قد انقلب شريراً لا حيلة في إصلاحه نفسه ، ولا غنى له عن منقذ ومخلص إلهي .. تلك النظرية التي بنوا عليها عقيدة الفداء وما يتبعها .

والمذهب (الثالث): أن الإنسان خلق مستعداً للخير والشر جميعاً ، وهو قول جمهور الفلاسفة وعلماء النفس والتربية في هذا العصر .

وهو مذهب وسط جامع سبقهم إلى تقريره الإمامان الغزالي (ت/٥٠٥هـ) وابن خلدون (ت/٨٠٨هـ)، غير أنهما يضيفان إليه أن الإنسان خلق إلى الخير أميل منه إلى الشر .

وقد فصلا مذهبهما تفصيلاً يتبين منه وجه التوفيق بين المذاهب كلها، وذلك أن من نظر إلى ما في الإنسان من العنصر الروحي الملكي (كما في عبارة الغزالي) أو عنصر النفس الناطقة (كما في تعبير ابن خلدون) قال إنه خير بطبعه ، ومن نظر إلى العنصر الجثمانى أو الحيوانى قال بعكس القول الأول ، ومن نظر إليهما معا . كما هو الأصوب . قال بالاستعداد للأمرين جميعاً .

ولا يفوتنا هنا أن نبين اتجاه النصوص الإسلامية في هذه القضية ، وأن فيها ما يشهد لهذا المذهب الوسط ، مذهب الاستعداد المزدوج : ففي القرآن الكريم في سورة الإنسان: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (٣) ، وفي سورة البلد: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (١٠) ، وفي سورة الشمس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴾ (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿ ٨ ﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿ ٩ ﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴿ ١٠ ﴾ .

بل فيها ما يشهد في الوقت نفسه أن هذه الفطرة المزدوجة أقرب في أصلها إلى السلامة والاستقامة : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَن تَقْوِيمٍ ﴾ (٤) ﴿ (سورة التين) ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٣٠) ﴿ (سورة الروم) .

نعم إن هذين النصين الأخيرين واردة في عقيدة الحق ، لا في إرادة الخير ، ولا خفاء في أن الفطرة الأولى في المسألة الاعتقادية هي فطرة التوحيد ، وأن عقائد الشرك والوثنية أعراض طارئة ، بل أمراض متطفلة ، من أثر الأتباع والمحاكاة،

وأما الفطرة الأولى في الناحية العلمية فقد يكون من السائغ الحكم فيها بالخيرية على أصل النشأة أخذاً من آية (التقويم) المشار إليها آنفاً . ولكن من الصعب تعميم هذا الحكم في الأجيال والطبقات والأفراد ، ولا سيما إذا لاحظنا اختلاف عامل الوراثة وما قد ينقله من الطباع الحميدة أو الذميمة عن الإباء ، ومهما يكن من أمر فإن أسبقية أحد الطبعين إلى الوجود لا يعني مطلقاً عدم قابليته للتبدل إلى أحسن أو أسوأ ، خلافاً لما يزعمه أعداء التربية والتعليم .

إن الطفل . ذكراً كان أم أنثى . يولد على الفطرة السوية ، أي الخلقة السوية، أي (السلامة) أي سليماً ، فلا يوصف بإيمان ولا بكفر ، ولا بإسلام ولا نصرانية ولا بأي دين من الأديان أو الملل أو النحل ، كما أنه يولد سليماً من الأخلاق سواء كانت حسنة أم قبيحة ، كما أنه يولد سليماً من التربية والتعليم ، إذن يولد الطفل صفحة بيضاء ، عنده القابلية للتلقي وأن تسطر فيه وتلقنه ما تريد ، فلا يرث شيئاً من الأديان أو الأخلاق أو التربية والتعليم عن أبويه أو أجداده ، فهي لا تورث وإنما تكتسب ، أما الصفات الجسمية فهي التي تورث عن طريق (الصفات الوراثية) أو ما يسمى (البروموزومات) ، قال تعالى في سورة النحل : ﴿ وَاللّٰهُ اَخْرَجَكُمْ مِّنْ بَطُونٍ اَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْاَبْصَارَ وَالْاَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ (٧٨) ﴾ . قال ابن الأثير الجزري (ت/٦٠٦هـ) في كتابه جامع الأصول ١٤٠٣هـ : « الفطرة المذكورة في هذا الحديث اختلف العلماء فيها واضطربوا في معناها ، وذهبوا في ذلك مذاهب متباينة ، وادعت كل فرقة منهم في ذلك ظاهر آية أو ظاهر سنة، وسنبن ذلك كله ونوضحه ونذكر ما فيه من الآثار والأقوال عن السلف والخلف . (تفصيل ذلك في الكتاب المذكور ، والمهم أو الخلاصة: أريد بالفطرة المذكورة في هذا الحديث الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه فكأنه قال كل مولود يولد على خلقة يعرف بها ربه إذا بلغ مبلغ المعرفة يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم ... واحتجوا على أن الفطرة الخلقة والفاطر الخالق بقوله عز وجل ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾ (سورة فاطر: آية ١) يعني خالقهن . وقوله : ﴿ وما لي لا أعبد الذي فطرني ﴾ (سورة يس: آية ٢٢) يعني خلقني وما كان مثله من أي القرآن ، وأنكروا أن يكون المولود فطر على كفر أو إيمان أو معرفة أو إنكار .. وقالوا إنما يولد المولود على السلامة في الأغلب خلقة وبنية وطبعاً ليس معها إيمان ولا كفر ولا إنكار ولا معرفة ، ثم يعتقدون الإيمان أو الكفر بعد إذا ميزوا .. واحتجوا بقوله في الحديث: ﴿ كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء . يعني سالمة . هل تحسون فيها من جدعاء ﴾ يعني مقطوعة الأذن .. فمثل قلوب بني آدم بالبهائم لأنها تولد كاملة الخلق ليس فيها نقصان ولا آفة ثم تقطع أذانها بعد وتشق وتشقب أنوفها .. وكذلك قلوب الأطفال في حين ولادتهم سالمة ليس لهم كفر ولا إيمان ولا معرفة ولا إنكار ..

قالوا : ولو كان الأطفال قد فطروا على شيء من الكفر أو الإيمان في أولية أمرهم ما انتقلوا عنه أبداً كما لا ينتقلون عن خلقتهم وقد نجدهم يؤمنون ثم يكفرون ويكفرون ثم يؤمنون . قالوا : ويستحيل في المعقول أن يكون الطفل في حين ولادته يعقل كفرًا أو إيماناً لأن الله عز وجل أخرجهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً .

قال أبو عمر : هذا القول أصح ما قيل في معنى الفطرة التي يولد الناس عليها والله أعلم ، وذلك أن الفطرة السلامة والاستقامة ، بدليل حديث عياض بن حمار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه عز وجل : ﴿ إني خلقت عبادي حنفاء ... ﴾ يعني على استقامة وسلامة ، والحنيف في كلام العرب : المستقيم السالم ﴿ ج: ٣ ، ص : ١٠١ بتصرف قليل) .

٢) فإذا سلمنا أن فطرة الخير والشر ليست موزعة على السواء في البشر ، واعترفنا بأن بعض الناس يولد خيرا بطبعه ، وبعضهم يولد شريرا بطبعه ، فإننا نفهم من هذه الأسبقية في ظهور أحد الطبعين منذ الطفولة ، وأن يكون التحول إلى الطبع المقابل له أصعب وأبطأ ، لتوقفه على عوامل خارجية جديدة ، ولكن أي دليل يدل على أن للطبع البدائي الذي يولد عليه الحيوان ، بله الإنسان ، يصل إلى ذلك الحد الذي وصفوه لنا من الجمود والاستعصاء على كل تحويل وتبديل ؟ ..

وقد يستأنس لهذا التنوع في أصل الجبلة بما جاء في الصحيحين : ﴿ الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ﴾ وفي رواية عند البزار في مسنده : ﴿ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ﴾ ، وفي صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ﴿ لأشج أشج عبد القيس ﴾ : ﴿ إن فيك خصلتين يحبهما الله : الحلم ، والأناة ﴾ وفي رواية أحمد والبيهقي : عن أم أيان بنت الوازع بن زارع ، عن جدها زارع ، وكان في وفد عبد القيس قال : ﴿ فجعلنا نتبادر من رواجلنا ، فنقبل يد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجله ، ثم نزل الأشج فعقل راحلته وأخرج عيبته ففتحها وأخرج ثوبين أبيضين من ثيابها فلبسهما ثم أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ﴿ يا أشج إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله : الحلم والأناة ، قال : يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلي عليهما ؟ قال : بل جبلك الله عليهما ، قال : الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله ﴾ (السنن الكبرى : ج٧ ، ص١٦٤ ، رقم ١٣٥٨٧) .

كما أنه يمكن تأييده بالتجارب النفسية المتكررة التي ثبت بها اختلاف طبائع الأطفال منذ نشأتهم ، وظهور بعضهم مبكرا بطابع الفضيلة ، وبعضهم بطابع الرذيلة والشذوذ الخلفي ، وبعضهم بطابع عادي غير متميز في أحد الجانبين ، ولكن ليس في النصوص ولا في التجارب ما يدل على جمود هذه الطبائع واستعصائها على التهذيب .

يجيب الجامدون المتشائمون ، وهم الذين يسميهم الغزالي أهل البطالة والكسل ، محتجين على دعواهم بحجتين (الأولى) مقايضة نظرية ، وهي أنه كما لا يمكن لإنسان تحويل خلقته الظاهرية من الدمامة إلى الوسامة ، كذلك لا يمكن تغيير طبيعته الباطنة من الشرية إلى الخيرية ، إذن : لا فرق بين فطرة وفطرة ، كلاهما من صنع الله الذي لا تبديل لخلقته .

(الحجة الثانية) تجربة عملية ، وهي أن كثيرا من أهل المجاهدة والرياضة حاولوا في أنفسهم تحطيم قوتي الشهوة والغضب ، وإسكات غريزتي الأمل والألم ، فباءوا بالفشل ، وإذا كانت هذه الوسيلة الوحيدة لاكتساب الخلق الحميد وقد ثبت استحالتها ، كانت غايتها محالة كذلك .

ونحن ندحض هاتين الحجتين ، واحدة واحدة ، على عكس ترتيبيهما :

أما الحجة العملية فإن الدليل التجريبي قائم على عكس ما زعموا فيها، فقد وفق الإنسان في كل عصوره إلى نقل طباع الحيوان من النضور إلى الألف ، ومن الصعوبة والحزونة إلى السلاسة والانقياد ، ومن اعوجاج السير واضطرابه إلى اعتداله وانتظامه حتى أن الإنسان ليرقص الخيل ، ويلعب الطير ، ويعلم الجوارح ألا تطعم مما تمسكه لربها وهي في أشد الحاجة إليه .. فإذا كان هذا هو الشأن في غرائز العجماءات ، فكيف بالغرائز الإنسانية التي أثبت علم النفس المقارن أنها أسلس قيادا وأعظم مرونة ، بسبب تنوعها وتعارضها وقبولها للمزج والتعديل بينها بترجيح بعضها على بعض .. ألا ترى غريزة المحافظة على الحياة يقابلها غرائز الحمية ، وحب المحمدة والدفاع عن العشيرة ، وكذلك غريزة الأثرة تلتطفها غريزة المشاركة العاطفية في الألم والسرور وهكذا ...

ولو سلمنا جدلاً استعصاء الطباع الإنسانية في أنفسها على المحو والإثبات، فإننا لا نسلم استعصاءها على التهذيب والتنظيم ، إلا أننا ليس يلزمنا في تصحيح مذهبنا أن نثبت لأنفسنا سلطانا على قلب طباعنا وتحويل جرثومتها الأولى ، بل يكفي أن نثبت اقتدارنا على تعقيم هذه الجرثومة أو على إخصابها ، ثم على تربيته بعد ذلك وإهمالها ، مثل ذلك مثل حيتي عنب وحنظل ؛ فإنك لست ببالغ ولو حرصت أن تجعل العنب حنظلا أو الحنظل عنبا ولكنك تملك أن تضع إحدى الحبتين أو كليتهما على صخرة جافة ملساء لا تغذيها تربة ولا يرويهما ماء ، فلا تعطيك زهرا ولا ثمرا ، وتملك أن تضعها في أرض طيبة تؤويها من الأعاصير ، وتحميها من الحشرات والطفيليات ، ثم تتعهدا بالماء والسماد ، حتى تنبت لك النبات الذي تؤهلها له طبيعتها ، ثم لا تزال تلاحقها ، تقويمها لأغصانها ، وتهذيبها لأشواكها ، وتسوية لها طولاً أو عرضاً على الشكل والمقدار الذي ترضاه لها ، فكذلك الروح وما فيها من قابليات واستعدادات وسجايا وجبيلات ، لا تستطيع أن تبدل عناصرها تبديلاً ، ولكنك أهل لأن تتعهد عناصر الخير فيها إمدادا بماء العلوم والمعارف ، ورفدا بالعمل الصالح ، وصقلا وجلاء بالندم على السقطات والزلزلات ، وبما شئت من تزكية وتنمية ، كما قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكّيهم بها وصلّ عليهم إن صلّاتك سكن لهم والله سميع عليم ﴾ (١٠٣) . وأنت أهل كذلك لأن تدع مرآتها يعلوها صدى الجهل ، وتغشاها عدوى خلطاء السوء ، وتتراكم عليها أنقياص العادات الذميمة ؛ كما قال تعالى في سورة المطففين: ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾ (١٤) .

وبالجملّة فإنما يكون الجهاد الخلقي عبثاً في أحد افتراضين لا ثالث لهما : أن تكون النفس الإنسانية قد خلقت خلقاً كاملاً مستجمعا لكل أطوارها ، أو أن تكون خلقت بتراء جامدة غير قابلة للكمال ، أما هي كما قال الغزالي ناقصة بالفعل ولكنها منطوية على إمكانيات الكمال ، قابلة بالقوة لما شاء الله من درجات الترقى والتدلي ، فقد اتسع ميدان الجهاد أمام كل مجاهد .

وذلك كله مما توحى به الآيات القرآنية الكريمة حيث يقول الله تعالى في سورة الشمس: ﴿ ونفسٍ وما سواها ﴾ (٧) فألهمها فجورها وتقاها (٨) قد أفلح من

زَكَاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴿١﴾. فجعل تسوية النفس من فعل البارئ المصور، ولكنه جعل تزكيتها أو تدسيته من عمل الإنسان .
وهكذا تسقط حجة المعارضة بشقيها النظري والعملي .

ذلك أننا نقبل تحديهم لنا بالمقايضة على الخلقة البدنية، ونقول: إننا وإن لم نملك أن نغير طبيعة أبداننا وأن ننشئها خلقاً آخر، فإننا نملك أن نعالجها من أمراضها، وأن نهذب شذوذها بتقليم الأظافر، وإزالة ما يغشاها من الشعث والغبار، وأن نجعلها بما نشاء من الزينة الظاهرة، وأن رسالتنا في الجهاد الروحي لا تعدو هذا النمط .

وكذلك نقبل الحجة التجريبية ونقول: إننا ليس علينا أن نمحو من أنفسنا غريزتي الشهوة والغضب . كما زعم المجادل . كيف وهما أدواتنا في الحياة، لا اجتلاب نفعها، واستدفاع ضررها، فمثل غريزة التشهي والتمني كمثل كلب الصيد الذي تبعته في طلب رزقك، ومثل غريزة الألم والغضب كمثل كلب الحراسة الذي تدفع به اللصوص والمعتدين عن نفسك وحريمك، فكما أنه ليس من الحكمة والرشد أن تقتل كلبك؛ كذلك ليس من الحكمة والرشد أن تقتل غريزتي الغضب والشهوة فيك، ولكن عليك أن تعلم كلب صيدك ألا يختطف الطير الأليف المملوك، وأن تعلم كلب حراستك ألا ينبح في وجه الضيفان . وهكذا واجبك أن تنظم سير غرائك إقداماً أو إحجاماً، على مقتضى قانون الشرع والعقل، وإذا كانت التجربة القاصرة الناقصة قد فشلت في هذه المهمة فإن التجربة الصابرة المثابرة، التي لا يزيد بها الإخفاق إلا معاودة وإلحاحاً وتشبهاً بالمثل العليا، وقد أثبتت دائماً نجاحها وانتصارها، تشهد بذلك سير الحكماء والمربين في أنفسهم وفي تلاميذهم .

وبعد: فإننا نلاحظ أن في دعوى المعارضة إحاطة وتعميماً في مقام كان حقه التفصيل والتقسيم . ذلك أن ههنا فصيلتين من السجايا :
« طباعاً قاصرة الأثر على نفسية صاحبها، بمعنى أنها لا تهتف به إلى عمل حميد أو ذميم .
« وطباعاً حافزة له على فعل الخير أو الشر .

ولعل أكثر ما جريه المعترضون هو من قبيل الفصيلة الأولى . فهم إذا قالوا لنا مثلاً : إن المرء قد يولد متفائلاً أو متشائماً، مرحاً أو كئيباً، ألمعي الذهن أو بطيء الإدراك، ذكورا أو شديداً النسيان، متذوقاً للفن أو محروماً من حاسة الجمال، نزاعاً للانطواء كثير الانزواء، أو ميالاً للخلطة نفوراً من الوحدة، وأنه لا حيلة له في تغيير هذه السجايا، قلنا :

وماذا يضيرنا هذا العجز إذا كانت الصفات المتقابلة لا تمنع أصحابها . في أي الطرفين فرضوا - أن يكونوا فضلاء أتقياء، مؤدبين لواجباتهم نحو الخالق والمخلوق .

فهذه الفصيلة كلها لا صلة لها بقانون الأخلاق، ولا تنقص مذهب الجمهور فيه ... وإنما الذي يتصل بموضوعنا من الطباع الإنسانية هو ما يكون منها ذا نزعة عملية نحو الفضيلة أو الرذيلة، كما لو قيل لنا إن صنفاً من الناس ينشأ

منذ طفولته شجاعاً جريئاً ، وصنفاً آخرأً ينشأ جباناً متردداً رعديداً ، وأن الرجل قد يولد سخياً أو شحيحاً ، لئِن العريكة أو شكسا خشن الجانب ، إلى نحو ذلك ، وأن كل ضرب من هذه الأخلاق يوحى إلى إرادة صاحبه حتماً تنفيذ مقتضى جبلته .

فنقولها هنا أيضاً: يجب أن نفصل بين الإيحاء وقبول الإيحاء ، فكل عمل الطبيعية والجبلية أنها تدعونا وتلح علينا أن نتخذ اتجاهها معيناً في سيرنا ، ولكن في وسعنا نحن أن نلبي الدعاء وأن نرفض الرجاء ، وما أحكم التعبير القرآني البليغ حين يقول: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ (٥٣) ﴿ سورة يوسف ﴾ فلم يقل: لحاكمة بالسوء أو للجنة إلى السوء ، ولنستمع إلى قوله سبحانه في سورة إبراهيم حين يحكي مجاعة الشيطان لأوليائه: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُمْ فَأَخْلَفْتُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْ مَوْا أَنْفُسِكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (٢٢) ﴿ . هكذا حصر كل سلطانه في مجرد الدعوة ، وألقى عليهم المسؤولية بأنهم هم الذين استجابوا لتلك الدعوة . ذلك أن المسؤولية إنما تتقرر في الأعمال الإرادية والإرادة ، وإن كانت جهازاً متصلاً بسائر الأجهزة النفسية . إلا أنها في الوقت نفسه منفصلة عنها . وبعبارة أخرى إنها متصلة بها اتصال استشارة وإثارة . وليس اتصال انتمار وارتباط آلي ولا شبه آلي . فموقف الإرادة في استقلالها عن العواطف والنزعات ، وعن الأفكار والذكريات ، وغيرها مع ارتباطها بها في المجموعة النفسية ، كموقف القاضي في استقلاله بالنطق بالحكم ، مع ارتباطه بجهاز العدالة كله ، من اتهام وشهادة ، وحجج ودفاع ، أو كملك له بطانتان تصف له إحداها الخير وتحببه فيه ، وتزين له أخراها سوء وتغريه به . والأمر في النهاية إليه .

وأخيراً فإننا نستطيع أن نتنزل مع هؤلاء الجبريين إلى النهاية ، وأن نسلم جدلاً كل المقدمات التي سبقت مناقشتها ، فنسلم لهم أول كل شيء أن الناس ليسوا سواء في الجبلية العامة ، وأن الطبيعة تؤهل كل طائفة منهم لناحية معينة من السلوك في الحياة ، ثم نسلم لهم أن هذا الميل الطبيعي لا حيلة للمرء في نزعته ومحوه ، ولا في تنظيم آثاره ، ونسلم أخيراً أن هذا العجز لا يسري على الطباع العادية وحدها ، بل على السجاياء المتصلة بصميم السلوك الأخلاقي كذلك . غير أننا نلفت نظرهم بعد هذا كله إلى أنهم حين يتحدثون عن جمود الطباع واستعصائها إنما يتحدثون عن ذلك الطبع الذي يستنتج بالظن من العادة المستمرة للمرء في سلوكه ، لا عن الطبع الحقيقي الكامن الدفين، الذي قد تغطيه طبقة سميكة من عوائدنا الشخصية أو الوراثية أو السارية إلينا من عدوى المجتمع ، حتى أنه ليخفى أمره على الناقد البصير ، بل قد يخفى على المرء نفسه كنه نزعاته وميوله ، وينخدع في حكمه على استعداداته ، إما لثقله عنايته بتحليلها ، وإما لفقد الفرص المواتية لظهورها، كما يجهل الزوج الذي لم يرزق ولداً قط مبلغ حنان الأبوة ورافقتها، وكما يجهل طالب العلم كنه ميوله الأدبية أو العلمية في فترة طويلة من سني دراسته ، وكما يجهل الجندي مدى قدرته على سياسة الجماعة وتصريف أمورها

لأنه يتولى أمر القيادة يوماً ما ، فإذا تغيرت ظروف كل واحد منهم أشرفت فيه صفات وملكات جديدة ، وعرف من نفسه ما كان ينكره منها، بل رب كلمة نصح تصادف القلب ، ورب حادث مفاجئ يصدم الشعور ، فإذا مجرى الحياة كلها قد تغير في طرفة عين ، وإذا المعوج يعود مستقيماً ، والفاجر العرييد تقياً نقياً .

وجملة القول في هذا الوجه : أننا سلمنا أن الرياضة والمعالجة وتقليب وجوه التجارب لا تخلق طبعاً جديداً ، فإنها على الأقل لا يلتبس عليك الفرق بين هذه التجربة الخلقية وبين التجربة النفسية .

فهذه الأخيرة تنقب عن ظاهرة موجودة مختفية لتعرف ما هو كائن ، وتلك تنقب عن ظاهرة يجب أن تكون لتحول إليها ما هو كائن .

وهكذا يتبين لنا أن الذي يعتمد على ظواهر السلوك وعلى مجاري العادات في حكمه بعدم تطور الطباع ؛ إنما يعتمد على جرف هار ، وأن مثله كمثل من يحكم على الصحراء الفاحلة الجرداء بأنها لا تقبل الإنبات ، دون أن يجرب سقيها أو حرثها أو معالجتها بسائر ضروب المعالجة .

فعلما ما يتوهمه الناس من جمود الطباع هو هذا اليأس ، وهو فقد الثقة بالنفس ، ومفتاح الخير كله في العمل والأمل ، واليقظة والجد ، والحرص على الإصلاح والتقدم ، وتلك هي الوصية الذهبية التي أوصانا بها صاحب الرسالة ﷺ حين يقول : ﴿ احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ﴾ (رواه مسلم) ، وتلك هي حقيقة الجهاد الأعظم الذي قال فيه الرسول الكريم ﷺ : ﴿ المجاهد من جاهد نفسه ﴾ (رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح) .

وقد وعد الله الذين يحافظون على عمل الصالحات بأن يصير الإصلاح ملكة لهم ، فقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩) ﴾ ، كما وعد المجاهدين لأنفسهم بإبلاغهم غايتهم من الهداية ، فقال جل شأنه في سورة العنكبوت: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩) ﴾ ، وهي آية مكية لا تعرف الكفاح بالسيف ، ولكن بالصبر والقناعة ، وقوة الإرادة ، وتحدي المغريات والمثيرات، والصدوم أمامها كالصخرة الراسية أمام إرياح العاتية ، وقد جاء في الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ : ﴿ عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْحَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَأَيَّاكُمْ وَالْكَذِبُ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا ﴾ (رواه مسلم) ، ومن أوضح الأحاديث الصحيحة في الدلالة على فضل الجلد والمثابرة وأثرهما في إزالة الرعونات الجبلية ، وتكوين الخلق الحميد المضاد لها ، قوله ﷺ : ﴿ وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يَعْضَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَعْنِ يَغْنِهِ اللَّهُ ، وَمَنْ يَصْبِرْ يُصْبِرْهُ اللَّهُ ﴾ (متفق عليه) .

• موضوع علم الأخلاق :

موضوع كل علم هو مباحثته التي يعنى بدراستها، وعلم الأخلاق في بحوثه يستهدف مسائل متعددة هي التي تكون موضوعه، فهو يبحث في الخير والشر ؛ ما

هما ؟ وما الفرق بينهما ؟ وما هو المعنى الذي يلاحظ في هذا العمل فيكون خيراً ، وفي ذلك فيكون شراً ؟ والضمير الأخلاقي الذي نقف به على الخير والشر ما هو ؟ وهل هو في حكمه على الأعمال قاض معصوم، وهاد لا يضل ؟ وما هو الحق والواجب ؟ وما هي الواجبات المختلفة ؟ وما هو المثل الأعلى الذي يجب أن نتجه جميعاً لتحقيقه ؟ وأخيراً: ما هي القواعد التي تؤدي رعايتها للخلقية المثالية الكاملة ؟

ويتبين من ذلك أن موضوع علم الأخلاق هو "الأعمال الإرادية للإنسان" (أي الصادرة عن تفكير وإرادة) من هذه النواحي كلها.

بخلاف الأعمال غير الإرادية (وهي التي تصدر عن المرء، ولا دخل لإرادته ولا لتفكيره فيها) ، كالأعمال الآلية، وهي التي تحدث والمرء نائم أو يقظان، مفكر أو غير مفكر، مثل أعمال الجهاز التنفسي والدوري والهضمي، والأعمال المنعكسة، وهي الناشئة عن سبب خارجي عن الجسم، مثل انقباض اليد عند خزها، واختلاج العين عند الانتقال فجأة من ظلمة إلى نور، فإن هذه الأعمال كسابقتها، لا كسب للمرء فيها، ولا تتعلق إرادته بها، وعلم الأخلاق يرتب مسئولية خلقية على الأعمال، ولذلك فإن الأعمال غير الإرادية (آلية كانت أو منعكسة) لا تدخل في موضوعه لأنه لا يتدخل إلا حيث يكون القصد والإرادة. (أمين ١٩٧٤م: ص ١٣) .

الأعمال المشتبهة : وهناك نوع من الأعمال قد يشتهه الحكم فيها، لأنها تشبه الأفعال الإرادية من ناحية، وتشبه غير الإرادية من ناحية أخرى، وعلى ذلك: أيتناولها علم الأخلاق فيصف بعضها بالخير وبعضها بالشر، ويرتب مسئولية على صاحبها، أم يكون صاحبها بمنجاة من ذلك ؟ ويتضح هذا المعنى من الأمثلة الآتية:

« أعمال إنائم : بعض الناس يأتي أعمالاً وهو نائم، كمن ينام ويترك المصباح مشتعلًا بجواره، ثم يأتي حركة لا يحس بها، تقلب المصباح وتحرق شيئاً، أو يقوم وهو نائم فيعثر بطفل بالدار فيصيب منه عضواً .

« أعمال الناسي : رجل تعود النسيان، وعلم باتفاق جماعة على قتل إنسان في موعد محدد، فاعتزم تنبيه المؤتمر به قبل الموعد ليحتاط لأمره، ولكنه أرجأ ذلك حتى نسي الأمر، فإذا الجريمة واقعة، دون أن يملك لها رداً .

« أعمال الغضوب : رجل يعلم من نفسه أنه يثور للبادرة تبدر من غيره، وإنه إذا ثار تملكه الغضب، وخرج عن وعيه، ومع علمه ذلك من نفسه ذهب لأحد المجالس التي هي مظنة لإثارة غضبه، فحدث ما توقع وأتى منكراً من الأعمال أو الأقوال .

فهذه الأعمال وأمثالها غير إرادية ؛ فالنائم لم يتعمد إحراق أدوات المنزل، ولا إصابته عضو للطفل النائم بجواره، والناسي لم يقصد ترك الذي يدبر الشر لقتله دون تحذيره، والغضوب لم يرد المنكر الذي ارتكبه في سورة غضبه، ولهذا ، كان لكل منهم الاعتذار عن أعماله بأنه لم يفكر فيها، ولم تصدر عن إرادة .

ولكن علم الأخلاق لا يقبل هذا العذر ؛ لأن قواعد الأخلاق توجب أن يحتاط المرء لدرء شر الحالات التي يكون فيها مسلوب الإرادة، فالناس مؤاخذون في ترك

التحفظ قصداً وعمداً، والنائم والناسي والغضبان مؤخذون على أعمالهم خلقياً لتترك الحيطة والحذر.

فهذه الأعمال وأمثالها يبحث فيها علم الأخلاق، ويرتب على صاحبها مسئولية خلقية، لأنها وإن صدرت عن غير إرادة وتفكير، ولكن كان في الإمكان الحيطة وتبين نتائجها وقت الانتباه والاختيار. ويوافق هذا ما اختاره الإمام الفخر الرازي في تفسيره ١: ١٤٠ هـ في معنى قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ (٢٨٦) ، (ج، ٤، ص ١٥٥-١٥٦) ، فإن التماس عدم المؤاخذه على النسيان أو الخطأ، دليل على أن ذلك مظنة المؤاخذه واللوم والمسئولية.

وصفوة القول: إن علم الأخلاق يبحث في "الأعمال الإرادية" و "الأعمال المشتبهة" ، وهي التي وإن كانت وقت صدورها لا دخل للمرء فيها ولا صلة له بها، ولكن كان من الممكن الاحتياط لها حين كان المرء في فسحة من الوقت، له انتباهه واختياره.

أما الأعمال غير الإرادية كالألية والمنعكسة فليست من موضوع علم الأخلاق في قليل أو كثير . (للتوسع انظر: أمين ١٩٧٤م: ص ١٤).

• علم الأخلاق وتقسيمه إلى نظري وعملي :

قد يكون في وسع الإنسان أن يستغني طول حياته عن بعض مسائل العلم والمعرفة فلا تخطر له ببال ، بل قد يستطيع أن يستغني عنها جميعها فترة طويلة أو قصيرة من عمره ؛ ولكن أحداً لن يستطيع أن يخلي همه من المسألة الأخلاقية طرفة عين.

إنها ضرورة الحياة العملية ، عند كل حركة أو سكون ، وعند كل نطق أو سكوت ، وعند كل هم بفعل أو قول ، تلجئ كل واحد منا أن يستفتي نفسه: هل يحسن به أن يقدم أو يحجم ؟

وأنها ضرورة الحياة العملية ، تطالب كل واحد منا بالجواب السريع على هذا الاستفتاء ، قبل أن يفوت وقت العمل ، وتطالبه بأن يكون جوابه مسبباً معتمداً على مبدأ يرضاه قاعدة لسلوكه ومعياراً لحكمته وتقديره ، أخطأ في ذلك أم أصاب ، أساء الظن أم أحسن في اختيار القواعد والأسباب .

من هنا مست حاجة كل عاقل إلى أن يكون عنده قانون حاضر يلقنه الجواب الصحيح عند كل استفتاء، ويعصم إرادته عن الخطأ في التوجيه والاختيار .

ذلك القانون هو علم الأخلاق.

فهو جملة القواعد التي ترسم لنا طريق السلوك الحميد، وتحدد لنا بواعثه وأهدافه.

هذا إجمال له تفصيله: فدارس الأخلاق يتبين له أن منها قسماً يدرس المباحث النظرية، وهو ما يسمى بالأخلاق العامة أو النظرية، وقسماً آخر يدرس المباحث العملية، وهو ما يعرف بالأخلاق الخاصة أو العملية.

• وعلم الأخلاق النظري :

هو علم يبحث عن المبادئ الكلية والمعاني الجامعة، التي تشتق منها الواجبات الفرعية، كالبحث عن حقيقة الخير المطلق، وفكرة الفضيلة من حيث هي، وعن مصدر الإيجاب ومنبعه، وعن مقاصد العمل البعيدة وأهدافه العليا .

كما يدرس الضمير وماهيته ومظاهره، من عواطف مختلفة (كالرضا والإغتراب والسرور الداخلي لفعل الخير، والألم والتأنيب والندم إذا كسب المرء شراً) ، وما يصدره من أحكام أخلاقية على مختلف الأعمال الإرادية، كالحكم على العمل بالخيرية أو الشرية ، كما يتساءل عما إذا كانت الأخلاق علماً من العلوم، أي عملاً من أعمال العقل أو هي وليدة التقاليد؟ وما هي الطريقة التي تتبع في تعرف المثل الأعلى الأخلاقي، كما يبين أركان المسؤولية الأخلاقية مثل الحرية والإرادة، ويناقش مسائل الخير والاختيار والثواب والعقاب، وما هي المقاييس التي تقاس بها الأعمال لبيان خيرها من شرها، وأخيراً ينقد النظريات التي تواردت على هذه المسائل العديدة، ويجتهد في الحصول على حل لها .

ويسمى (فلسفة الأخلاق) أو (علم الأخلاق النظري) ، وهو من علم الأخلاق العملي بمنزلة أصول الفقه من الفقه ، فهو شأن الخواص والمجتهدين ، ولا يطلب من غيرهم إلا كما تطلب النافلة بعد تمام الفريضة ، ولذلك لا نجد له من الأقدمية ولا من الشمول ما لعلم الأخلاق العملي .

فالوثائق التاريخية التي وصلت إلينا لا تشير إلى أن قدماء المصريين عرفوا هذا النوع من الفلسفة ، إلى جانب الفلسفة النظرية المعروفة لهم في الإلهيات والكونيات ، ولعل فلاسفة اليونان هم أول من قسم الفلسفة إلى قسمين: (فلسفة نظرية) تبحث عما يجب علمه واعتقاده ، و (فلسفة عملية) تبحث عما يجب عمله والتحلي به .

ومعنى كون فلسفة الأخلاق فلسفة عملية أنها تتعلق بالعمل، لا أنها هي من نوع العمل، فإن الفلسفة كلها بحوث نظرية وإن اختلفت مادتها وموضوعها، فإذا تعلقنا بالحق الذي يعتقد كانت نظرية في أداتها وفي موضوعها معاً، وإذا تعلقنا بالخير الذي يفعل كانت نظرية في أداتها عملية في موضوعها، بل علم الأخلاق العملي نفسه هو أيضاً من قبيل النظر لا العمل، وإن كان العمل مادته كما هو مادة التعلم النظري . مع هذا الفارق الوحيد بينهما: وهو أن العمل الذي هو موضوع العلم العملي أنواع من الأفعال لها مثال في الخارج، كالصدق والعدل ونحوهما، بينما موضوع العلم النظري هو جنس العمل المطلق، وفكرته المجردة التي لا يتحقق مسماها خارجاً إلا في ضمن الأنواع التي يبحث عنها العلم العملي . تلك الأنواع التي تعد من قبيل الوسائل لتحقيق الخير المطلق أو الفضيلة الكلية التي يبحث عنها العلم النظري.

• وعلم الأخلاق العملي :

هو علم يبحث عن أنواع الملكات الفاضلة التي يجب علينا التحلي بها ؛ كالإخلاص والصدق والشجاعة والعفة والوفاء والعدل . كما يدرس الواجبات المختلفة ؛ واجب الإنسان نحو نفسه، ونحو الأسرة، ونحو الوطن والدولة، ونحو الإنسانية، ونحو الكائنات الحية، وواجبه نحو الله تعالى . وبعبارة أخرى: إنه

يعرض لمباحث الأخلاق النظرية بالتطبيق على ظروف الحياة العملية المختلفة.. ليقول كلمته فيها بيان ما يتفق مع معاني الخير والشر، والحق والواجب، كما أن المقاييس الخلقية تقول رأيها الفصل في الواجبات الشخصية والاجتماعية والإلهية، وفي المشاكل الاجتماعية، كحقوق المرأة وحقوق العمال ونحو ذلك.

وعلم الأخلاق العملي هو أكثر النوعين ارتباطاً بالحياة، فهو الغذاء اليومي بل الواجب العيني ليكون في كل يد النبراس والمعيار. ولذلك لا تكاد تخلو من معرفته أمة من الأمم في القديم والحديث. فالكل حريص على الحث على آدابه التي يصل إليها بالفطرة أو بالفكر أو بالتجربة أو بالوراثة والرواية.

ويمكن اعتبار القسم العملي (فنًا) ، أي علماً تطبيقياً بالنسبة للقسم النظري، ومن تأمل ضروب الحياة وواجباتها المختلفة وتزاحمها وكثرتها وشدة الحاجة في تطبيقها إلى دقة فهم وسلامة ذوق وحكمة وسياسة ؛ أدرك أن السلوك الأخلاقي يعد بحق من أرقى الفنون الجميلة لمن عرف كيف يؤلف من حياته اليومية صفحة منسقة كاملة على منهاج هدي الرسول ﷺ : ﴿إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَأَلْهَلِكُ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ﴾ (رواه البخاري).

• غاية علم الأخلاق :

ما هي الغاية التي نبتغيها من هذا النوع من الدراسة العلمية والعملية ؟ وهل لدراسة الأخلاق من فائدة نرتجئها ؟ وبعبارة أخرى: هل يعتبر علم الأخلاق وسيلة تامة في التربية الخلقية ؟

يرى بعض الفلاسفة: أنه ليس للعلم أثر في إصلاح النفوس ؛ فيقول (بليز باسكال Blaise Pascal) الفيلسوف الفرنسي (ت/١٦٦٣م) : إن الأخلاق الصحيحة تهزأ بعلم الأخلاق وتسخر منه . ويرى (هربرت سنسر Herbert Spencer) الفيلسوف البريطاني (ت/١٩٠٣م) : أن حماسة الأخلاقيين من الفلاسفة ونشاطهم في نشر العلم رغبة في إصلاح النفوس البشرية، إنما هو بدعة وسخافة.. وكيف يرجى من العلم تهذيب النفوس بينما نرى المتعلمين الذين استنارت عقولهم لا أخلاق لهم، ونرى الواعظين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ويجانب هؤلاء نجد من الجاهلين والأميين من هم على جانب عظيم من الاستقامة والشرف.

فهذا البعض من الفلاسفة ينكر الصلة بين العلم والأخلاق، ويرى عدم غناء دراسة الأخلاق، ولا يرى أن العلم وسيلة متممة للتربية الخلقية، وكأن هؤلاء الفلاسفة ومن تبعهم يرون أن الوراثة ضربة لازب، وأن المرء ينشأ على ما أمده به الوراثة من صفات الآباء والأجداد، فهي إما أن تسمو به للخير والفضيلة، وإما أن تنحدر به إلى مهاوي الرذيلة.

وهذا الرأي بلغ من التطرف نهايته ؛ فهو يهدر جميع التعاليم الأدبية، ولا يجعل قيمة للمواعظ والنصائح الأخلاقية . نعم المرء محكوم . إلى حد ما . بعامل الوراثة، ولكن ذلك لا يقلل من أهمية عامل آخر هو البيئة بمعناها الأعم ،

وعامل التنشئة الاجتماعية، والمتضمن ما يدرسه المرء من العلوم والفنون والآداب، وأثرها القوي في تكييف عاداته وأخلاقه.

وكيف لا تكون لدراسة الأخلاق قيمة والله تعالى يقول في سورة الذاريات : ﴿ وَذَكَرْ فَإِنَّ الدُّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ ، ويقول الإمام الغزالي (ت/٥٠٥هـ) في هذا المعنى في كتابه إحياء علوم الدين ١٤٠٠هـ : « لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما قال ﷺ : ﴿ إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا ﴾ (متفق عليه) ، فكيف ينكر هذا في حق الأدمي وتغيير طباع البهيمة ممكن ؛ إذ ينقل البازي من الاستيحاش إلى الأُنس، والكلب من شره الأكل إلى التآدب والإمساك، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ١٥ ﴾ (مجلد ٣، ج ٨، ص ١٠١) .

يقول (سقراط (Socrates) الفيلسوف اليوناني (ت/٣٩٩ ق.م): « إن معرفة الفضيلة تكسبها، والجهل بها مصدر الرذيلة ومآتها، لأن الهدف الذي تنزع إليه فطرة الإنسان هو سعادته الحقيقية، والفضيلة هي الطريق الوحيد الموصلة إلى ذلك الهدف دائما، ولا يتصور أحد أن يسلك المرء سبيل شقاوته وهو عالم مختار في عمله، والأشرار لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم، أو جهلهم بتحديد وسائلها، وعلاجهم هو بتصحيح معلوماتهم، لا بتقويم نواياهم وعزائمهم، لأنهم لا ينوون الخير لأنفسهم، ولكنهم يجهلون ذلك الخير أو يجهلون وسائله » (كرم ١٩٧٦م: ص ٣١٤) .

فهو بهذا يؤكد الصلة بين العلم والأخلاق، ويرى أن دراسة علم الأخلاق وسيلة تامة للتربية الخلقية، سواء أردنا بالعلم مجرد المعرفة التلقينية أو الإدراك العقلي الجاف، أم أردنا المعرفة الكاملة الملهمة المتميزة.

نعم ، العلم إذا تغلغل في النفوس أورثها البأس والإقدام، وكساها حلة المهابة واليقين، ولكن العاملين بعلمهم هم الأقلون قديما وحديثا، ومن أجل ذلك قال الإمام علي ؑ : « إنما زهد الناس في طلب العلم لما يرون من قلة انتفاع من علم بما علم » وها نحن أولاء نرى الناس يتلون من كتاب الله ويسمعون من السنة النبوية والحكم الخلقية وهم مع ذلك خلو من حلية التقوى وطابع الهدى، لا تشبههم يد المراقبة، ولا تكفهم خيفة المحاسبة، فهم لدواعي الهوى مطيعون، ولدعائم الأخلاق مضيعون » فاعلم بذلك ليس وسيلة تامة للتربية الخلقية كما يرى سقراط ، ومن كلام (أفلاطون (Plato) الفيلسوف اليوناني (ت/٣٤٨ ق.م): « ليس بالعلم وحده يصبح المرء فاضلا » (المرجع السابق: ص ٥٥-٥٦) وانظر: (زكريا ٢٠٠٤م: ص ١٣ وما بعدها) وانظر: (يالجن ١٤٠٦هـ: ص ٣٣٩، ٣٣٨) .

ويوضح بعضهم معنى ذلك؛ بأنه ليس المقصود بالعلم مجرد المعرفة التلقينية أو الإدراك العقلي الجاف، بل المعرفة المتملكة من العقل إلى القلب، والتي تصح إيمانا عميقا، وقوة ملهمة للإرادة ومتحمسة.. وبذلك يكفي العلم في التربية، وتحقيق الفضيلة، حتى أن الذي يفعل السوء يبرهن على نقصه في معرفة الخير وإيمانه. فهو بذلك يؤكد رأي سقراط ويفصله، فيؤكد الصلة بين العلم والأخلاق. ولكن العلم وحده ليس وسيلة تامة للتربية الخلقية، بل لابد مع المعرفة اليقينية المهمة من وجود إرادة مؤمنة متحمسة . [وهذه أيضا

نظرة كثير من علماء النفس المحدثين ، ويعتبر المجرم في أمريكا مريضاً نفسياً ويلحق بمصحة علاجية [.

ويرى أفلاطون : أن الاعتقاد الديني هو من أنجع الوسائل في التربية الخلقية، وأنه لا يمكن ممارسة حياة الفضيلة والخير إلا إذا جعلنا الله غايتنا . (أندرية كرسون Andre Wilkerson : المشكلة الأخلاقية: ص٧٨ . ٩٠).

فدراسة الأخلاق وسيلة ناجحة من وسائل التربية والتهديب، لأن البحث في الفضائل وحسن عاقبتها، وتعرف الرذائل وسوء مغبتها، ودراسة نماذج للمثل الأعلى من أهل الفضيلة في حياتنا، والأسوة الحسنة في تاريخنا، كل ذلك يستهوي الدارس ويفرغ بالتحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة، ولا ينكر أحد ما لقوة الإغراء والاستهواء من أثر كبير.

كما أن دراسة الأخلاق تكسب صاحبها الدقة في تقدير الأعمال الأخلاقية، والإصابة في الحكم عليها، بعد أن وقف على معاني الخير والشر وما إليها، وعرف المقاييس الأخلاقية التي تقاس بها الأعمال المختلفة.

ففي بحث الأعمال لبيان خيرها وشرها، هناك فرق كبير بين من يعتمد في حكمه على الدراسة والعلم، وبين من يستند إلى العادة والعرف، وقد يصيب صاحب العادة والتقليد، ولكن صوابه يكون كرمية من غير رام ، وقد يخطئ صاحب الدراسة والبحث في بعض الجزئيات الدقيقة ولكن خطأه يكون نادراً .

ومثل هذا الفرق تجده بين زارع للأرض وهو دارس للزراعة علمياً وعملياً، خبير بالتربة وما يصلحها، ملم بأنواع المزروعات والأمراض التي تصيبها وطرق علاجها، وبين زارع آخر لا يعتمد إلا على تجربة ناقصة وتقليد للأباء والأجداد، وهكذا الفرق بين الطبيب والدجال، والمهندس المعماري ومن يتلقى بالوراثة حرفة البناء .

ويمكن أن نلخص الغاية من دراسة الأخلاق فنقول :

« دراسة علم الأخلاق تكسب صاحبها القدرة على تمحيص الأعمال ونقدها وتقديرها حق قدرها، دون أن يخضع في حكمه إلى الف أو عادة . (تقوية الضمير) .

« وبها تقوى الإرادة على عمل الخير وسلوك السنن القويم، وتنشط العزيمة للمضي في سبيل الفضيلة واتخاذها نبراساً في أعمالها . (تقوية الإرادة) .

ومع أن دراسة الأخلاق وسيلة ناجحة للتربية والتهديب، إلا أنها مع ذلك لا يمكن أن تجعل جميع الناس أختياراً، لأن ذلك يتوقف على عوامل متعددة منها: الوراثة، والتنشئة الاجتماعية، والاستعداد الشخصي.. ولكن كفاها فضلاً أنها تهدينا النجدين، وترشدنا إلى الصراط المستقيم.

وفي الإشارة إلى عامل الوراثة، يقول تعالى في سورة مريم: وفي الإشارة إلى عامل الوراثة، يقول تعالى في سورة مريم: ﴿ يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امراً سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (٢٨) ﴾ ، وفي الإشارة إلى عامل التنشئة الاجتماعية يقول تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ

ارْحَمَهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) ﴿ وفي الإشارة إلى عامل الاستعداد الشخصي يقول ﷺ : ﴿ الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ﴾ (متفق عليه) ، ويصور هذا المعنى قول النبي ﷺ : ﴿ مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ﴾ (متفق عليه) .

وكذلك شأن الأخلاق والنفوس التي فيها استعداد للفضيلة والخير، والنفوس الأخرى التي ختم الله على قلوبها فلا تتفتح بموعظة، ولا تقبل نصيحة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ وأتل عليهم نبا الذي أتيناها آياتنا فانسلخ منها فأنجبعه الشيطان فكان من الغاوين (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أجذب إلى الأرض وأبغ هوأه فمئله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون (١٧٦) ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون (١٧٧) من يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون (١٧٨) ﴾ .

وقال تعالى في سورة الجاثية: ﴿ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فممن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون (٢٣) ﴾ .

• الأخلاق الفلسفية والأخلاق الدينية :

يرى الباحثون من علماء الغرب أن قوانين الأخلاق الفلسفية وقوانين الأخلاق الدينية يختلفان اختلافا بينا ؛ من حيث موضوعها (أي نوع العلاقات التي ينظم كلا منهما) ، ومن حيث الواضع لهما (أي المصدر والسلطة التي يصدر عنها الأمر الأخلاقي) ، ومن حيث أساس التشريع (أي الأسباب التي يستند إليها) ، ومن حيث بواعث العمل وأهدافه وجزاءاته المقررة في كل منهما وبيان ذلك فيما يأتي :

١- من حيث الموضوع :

فالأخلاق الدينية في نظرهم . أي أنهم لا يدخلون الأخلاق الإسلامية في كلامهم . تنظم الصلة بين الخالق والمخلوق، ولا شأن لها بالمعاملات الإنسانية، بينما الأخلاق الفلسفية ترسم الطريق لسلوك الإنسان في نفسه أو في المجتمع، ولا شأن لها بنظام الشعائر والعبادات، لا بمعنى أنها تقف منها موقف الحياء، أو موقف القبول والتلقي من يد العرف ؛ بل إنها قد تتركها إنكارا، وهكذا ينفصل موضوع الأخلاق الدينية والأخلاق الفلسفية انفصالا تاما .

يقول الفيلسوف (إيمانويل كانت Immanuel Kant) : « إنه ليس على الناس واجبات قط نحو خالقهم لأنهم ليس لهم حق قبله، وكل واجب يقابله حق لا محالة » ، ونرد فنقول: بعد التسليم بالمقدمة الثانية بشأن تبادل الحقوق، فإن المقدمة الأولى مخالفة للتعاليم الإسلامية؛ فالإسلام يقرر أن للعباد على

الله حقاً كتبه على نفسه تفضيلاً إذا عبده لا يشركون به شيئاً أن لا يعذبهم، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ يَا مَعْزِرُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ ؟ قَالَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : أَنْ يُعْبَدَ اللَّهُ وَلَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ ، قَالَ : أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ ؟ فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمْ ﴾ (رواه مسلم) وفي رواية عند أحمد : ﴿ قَالَ : أَنْ يَدْخُلَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ ، ومصدق ذلك من القرآن الكريم في سورة التوبة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ (١١١) ﴾ ، وقد زعم (إيمانويل كانت Immanuel Kant) أيضاً : أنه ليس على الناس واجبات تجاه الكائنات الدنيا لهذا السبب نفسه، وهو عدم تبادل الحقوق بينهما، وذلك أيضاً خلاف التعاليم الإسلامية التي تقرر على المؤمنين واجبات من العناية والرفق بالحيوان، ومن العناية والإصلاح في كل شيء يقع في قبضة الإنسان جزاء لحق التسخير الذي خوله الله للناس على سائر الكائنات . (وسياتي تفصيل ذلك) .

٢- من حيث واضح القانون ومستنده :

تلتقي المذاهب الفلسفية على أن مصدر الإلزام الأدبي هو مصدر إنساني خالص وإن اختلفت بعد ذلك في التفاصيل: هل هو العقل أم الضمير الخلقى أم ضرورة الحياة الاجتماعية؟ وترى أن مستنده في التشريع هو اعتبارات إنسانية تبرر حكماً لدى العقل أو العاطفة، أما الإلزام في الدين فيقولون: إن مصدره إلهي صرف ، كما أن مستنده هو الإرادة العليا المحضة وقضاؤها المبرم ، اقتنع العقل أم لا ، رضي الناس أم لا .

٣- ومن حيث يواكب العمل وأهدافه وأجزئته (عوامل السلوك) :

وقالوا: إن النظرة الدينية تختلف عن النظرة الفلسفية من هذه النواحي أيضاً . فالشرائع الدينية تضع لمن يطيع أمرها أو يعصاه جزاء أخروياً مثوبة أو عقوبة، والترغيب في الفضيلة والترهيب من الرذيلة يعتمد في وسائله على هذا الجزاء، ويكون هدف الناس الوحيد هو: نيل الثواب والنجاة من العقاب، وباعثه الوحيد على العمل هو الخوف أو الرجاء . وبذلك يصبح العمل الأخلاقي عملاً حسابياً لموازنة الربح والخسارة، وليس عملاً خلقياً بريئاً من الأغراض مجرداً عن الغايات.

• الأخلاق الفلسفية :

فإن قانونها لا يفترض جنة ولا ناراً ولا حياة بعد الموت، وجزاء الفضيلة عنده هو نتيجتها الطبيعية، من رضا العامل وطمأنينته وشعوره باستكمال إنسانيته، وارتياح ضميره بأداء الواجب، وإن لوح بعد ذلك بشيء من تحقيق المصالح الإنسانية التي يثمرها العمل، أو الفوائد التي تعود على العامل (كطيب الذكر وحسن السمعة) فإنما هي أجزئية أدبية. وإذا نظرنا في هذه الفوارق وقيمتها وجدناها لا تنطبق على وجهة النظر في الأخلاق الإسلامية، وذلك على الوجه الآتي:

• الأخلاق الإسلامية :

• من حيث الموضوع :

أما أن موضوع الأخلاق الدينية ينحصر في مادة العبادات والأمور الإلهية؛ فإنه إذا صح ذلك في دين ما فما أبعد عن أن يكون طابعا لقانون الأخلاق في الإسلام،

وقد سبق أن موضوع علم الأخلاق هو الأعمال الإرادية والمشتبهة من حيث التوجيه والحكم وما يلزمهما . ومع هذا فإنه قد اتسع لمجالات متعددة . فقد تناول الأمور الإلهية والعبادات والشعائر، ونظم السلوك الإنساني، فلم يترك للنشاط الإنساني . فرديا أو اجتماعيا . مجالا حيويا أو أدبيا أو فكريا أو روحيا إلا رسم له منهاجا للسلوك، حسب قاعدة معينة . وزاد على ذلك أنه تخطى علاقة الإنسان بنفسه وعلاقته ببني جنسه، فشمّل علاقته بالكون جملة وتفصيلا، ووضع لذلك كله الآداب المرضية والتعاليم السامية.

فقد أثار القرآن الكريم التعاطف بين الإنسان وبين الكائنات الحية وغيرها، قال تعالى في سورة الأنعام: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلَكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٣٨) .

وجعل حق التسخير لهذه الكائنات يقابله واجب العناية والإصلاح والرحمة والرفق بالحيوانات، ففي حق التسخير قال تعالى في سورة النحل: ﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفْعًا وَمَنْفَعًا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَمْثَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْفُسَ أَنْ رِبْكُمْ لِرَعْفٍ رَجِيمٍ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يَنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ النَّبَاتِ أَنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنَّجْمُ مَسْجَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ أَنْ فِي ذَلِكَ لآيَةٌ لِقَوْمٍ يَذَكِّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي يَسْجُرُ الْبَحْرَ لِيَتَأْكُلَا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حُلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَتَلْتَبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعَدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَجِيمٌ (١٨) ، وقال تعالى في سورة الملوك: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ ذُلُولًا فَامشَوْا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ (١٥) ﴾ .

وفي واجب الرحمة والرفق بالحيوان قال ﷺ: ﴿ فِي كُلِّ كَبِيرٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ ﴾ (متفق عليه) ، وفي صحيح مسلم: ﴿ إِنْ اللَّهُ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ ، وَلْيُجِدْ أَعْنَاقَكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ ﴾ ، وفي المسند وصحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها ركبت بعيرا وكان منه صعوبة ، فجعلت تردد ، فقال لها رسول الله ﷺ: ﴿ عَلَيْكَ بِالرَّفْقِ فَإِنَّهُ لَا يَكُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ ، وَلَا يَنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ ﴾ .

فإذا ضيع الإنسان هذا الواجب فعقابه على الله ، كما قال ﷺ: ﴿ دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا ﴾ (رواه مسلم) .

وفي واجب العناية والإصلاح قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) ﴾ . قال

الرازي في تفسيره ١٤٠١هـ: « قال ابن عمر: قلت لعائشة: أخبريني بأعجب ما رأيت من رسول الله ﷺ ، فبكت وأطالت ثم قالت: كل أمره عجب ، أتاني في ليلتي فدخل في لحاي حتى ألصق جلده بجلدي ، ثم قال لي: يا عائشة هل لك أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي؟ فقلت: يا رسول الله إني لأحب قريبك وأحب مرادك قد أذنت لك . فقام إلى قرية من ماء في البيت فتوضأ ولم يكثر من صب الماء ، ثم قام يصلي ، فقرأ من القرآن وجعل يبكي ، ثم رفع يديه فجعل يبكي حتى رأيت دموعه قد بلت الأرض ، فاتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة فرآه يبكي ، فقال له: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: ﴿ يا بلال أفلا أكون عبدا شكورا!؟ ثم قال: ما لي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ﴾ وروي: ﴿ ويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها ﴾ « (مجلده٥، ج٩، ص١٣٨).

فإذا فرط الإنسان في هذا وسعى بالفساد في الأرض استحق غضب الله ، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِدَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمُهَادِّ (٢٠٦) ﴾ ، وهكذا جمع الإسلام أطراف الحقيقة الأخلاقية، وجمع بين ما فرق الناس باسم الدين وباسم الفلسفة ووفق بينهما وكان له المزيد . (يمتاز بالجمع والتوفيق والتكميل) .

• من حيث أساس التشريع الأخلاقي ومصدره :

أما أن مصدر الأخلاق الدينية إلهي، وأنها لذلك تستند إلى هذا المصدر المقدس الواجب الطاعة، وتتبع الأسلوب التحكيمي التعبدي ولا تهتم باقتناع العقل واطمئنان الضمير فنقول : إن الناظر في أسلوب الدعوة الأخلاقية في الإسلام يرى أنها لم تأخذ الطابع التعبدي التحكيمي الذي نسبوه إلى الأخلاق الدينية، وإنما تعتمد دائماً على الحكم المعقولة المقبولة، فتخاطب الإدراك السليم، والوجدان النبيل، بأسباب مقنعة تبرر أمرها بما تأمر به، ونهيهما بما تنهى عنه، تفصيلاً وإجمالاً وضمناً .

• فالأسلوب التفصيلي :

هو الذي يقرن الأمر الأخلاقي ببيان الحكمة والسبب تفصيلاً ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّقَابِ بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون (١١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا أَيُّحِبُّ أَحَدِكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ بَشِيرٌ رَّحِيمٌ (١٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) ﴾ ، وفي سورة البقرة: ﴿ وَلَا تَسَامَوْا أَنْ تَكْتُوبَهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا (٢٨٢) ﴾ ، وفي سورة العنكبوت: ﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ

تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرِ اللَّهِ الْكَبِيرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴿٤٥﴾ ،
 وفي سورة فصلت: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا
 الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
 يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ .

والأسلوب الإجمالي هو الذي يقرن الأمر الأخلاقي ببيان الحكمة والسبب
 إجمالاً ، ومن ذلك قوله تعالى في سورة الجمعة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِيَ
 لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ ، وقوله في سورة النساء: ﴿ إِنْ اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا
 الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنْ اللَّهُ نِعَمَا
 يَعْظَمُكُمْ بِهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا (٥٨) ﴾ .

• الأسلوب الضمني :

وحتى إذا جاء الأمر الأخلاقي مجرداً عن التعليل ؛ فإن النص يشفع الأمر
 الأخلاقي بما ينزع عنه صبغة التعنت والتحكم وفرض الطاعة اعتماداً على أن
 المصدر واجب الطاعة ؛ بل لأن الأمر ذو حكمة بالغة وعلم واسع ، فلا يأمر إلا بما
 يصلح البشرية ويهدئها سواء السبيل ، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿ كَتَبَ عَلَيْكُمْ
 الْقِتَالَ وَهُوَ كَرِهٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا
 وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦) ﴾ .

وبذلك نرى أن قانون الأخلاق في الإسلام لا يستند في التشريع والإلزام إلى
 قداسة المصدر ووجوب طاعته فقط ، وإنما يحرص على التحليل والتعليل وبيان
 الحكم التي تقنع العقل ، ويطمئن لها الضمير .

• مصدر التشريع :

يرى الغربيون أن الأخلاق مصدورها إلهي لا إنساني ، ويفخرون بأنهم اكتشفوا
 للإلزام الأدبي (الأخلاقي) مصدراً آخر غير الوحي السماوي ، ألا وهو النور العقلي
 أو الإحساس الخلقي الذي ينطوي عليه قلب الإنسان .. ولكن هذا ليس بجديد
 على الإسلام .

فالقانون الإسلامي في رجوعه إلى العقل السليم والضمير الحي فإنه لا يرجع
 إليهما على أنهما مؤيدان له فحسب ، يبرران حكمه ويشفعان له عند الناس ؛ بل
 إنه يعطيهما سلطة الحكم والأمر والنهي في أطوار ثلاثة: قبل ورود الشرع ، وفي
 أثناء نزول الشرع ، وبعد انتهائه وتمامه . وذلك على النحو التالي:

« أما قبل نزول الشرع: فقد قرر القرآن الكريم في أصرح عبارة أن النفوس قد
 منحت بفطرتها قوة التمييز بين الخير والشر والتقوى والفجور والعدل
 والظلم ، قال تعالى في سورة الشمس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا
 وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾ ، وقال في
 سورة القيامة: ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾
 ولم يكتف بأن جعل هذه البصيرة قوة مدركة كاشفة معرفة ، بل جعلها
 حاكمة أمره ناهية ، ونعى على من خالفها أنه من أهل الضلال والطغيان ،
 قال تعالى في سورة الطور: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُمْ بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ
 (٣٢) ﴾ ، فالخضوع لأوامر الأحلام والعقول على ذلك حق لا شك فيه ، متى

اتضح أمامها طريق الحق والخير، وفي مصنف ابن أبي شيبة من كلام الحسين البصري رحمه الله قال: « جَدْنَا وَكَيْعَ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ عَنْ مُحَمَّدٍ قَالَ: كُنَّا نَتَحَدَّثُ ؛ أَنْ الْعَبْدَ إِذَا أَرَادَ إِلَهَهُ بِهِ . أَظْنَهُ قَالَ - خَيْرًا ، جَعَلَ لَهُ زَاجِرًا مِنْ نَفْسِهِ يَأْمُرُهُ بِالْخَيْرِ ، وَيُنْهَاهُ عَنِ الْمُنْكَرِ » (ج٧، ص٢٠٠، رقم ٣٥٣٢٤).

لعل من قائل : إن الحسن والقبح في الأفعال شرعيان، فالحسن هو ما أمر به الشرع، والقبيح هو ما نهى عنه الشرع، أما القول بأن الحسن والقبح عقليان فهو مقالة المعتزلة . وهذا صحيح . ولكن نقول مجيبين: إنه لا يوجد عاقل ينكر ما منحه الله للإنسان من ملكة التمييز بين الأفعال، والحكم عليها بالحسن أو القبح بالمعنى الإنساني، بمعنى: أن بعضها يقبله الطبع السليم ويعده صفة كمال ويمدح فاعله، وبعضها الآخر يمجّه الذوق السليم ويعده صفة نقص ويذم فاعله، وهذا كله لا جدال فيه، وإنما الخلاف في أمر آخر، وهو أن الأحكام التي تصدرها عقولنا هل نجزم بمطابقتها للواقع وبأنها حكم الله في نفس الأمر؟ وهل نعتقد أن الله كلّفنا باتباعها وسيحاسبنا عليها ويجزيها ثواباً أو عقاباً قبل إرسال رسول أو إنزال كتاب، أم ينبغي ألا نتخذ أحكامنا مرآة صادقة لأحكام الله إلا أن يرسل إلينا رسولا ؟ فهذا هو محل الخلاف وليس محل بحثنا الآن .

فالإسلام يقرر للعقل سلطاناً أدبياً بالمعنى الإنساني (السابق بيانه) ويسميه الغربيون (سلطان الضمير) ، كما يعترف باستقلاله وكماله في الفترة السابقة على نزول الشريعة ووصولها إلى من وجهت إليه .

« وأثناء نزول الشريعة وبعد تمامها: هل يبطل دور العقل وتنسخ أحكامه وأوامره ؟ الجواب: لا ، فإن النور لا ينسخ النور أبداً ، ولكنه لا يكون مستقلاً ولا كاملاً كالحالة السابقة . فإما أن يؤكد نور الشرع ويؤيده ويقرره، وإما أن يغذيه ويقويه، وإما أن يزيده ويكمله، وبيان ذلك فيما يأتي: إن شئون الإنسان على ثلاثة أقسام:

« منها : ما للعقل فيه مجال واضح وحكم حاسم، وهو البديهيات والأصول التي لا تتعارض فيها العقول ولا يختلف فيها اثنان، مثل: الصدق النافع حسن، والكذب الضار قبيح . ففي هذا القسم يجيء الشرع مقررًا لحكم العقل ومؤيداً ومؤكداً . قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) ﴾ ، وروى مسلم وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ﴿ عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا ، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الضُّجُورِ ، وَإِنَّ الضُّجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يَكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا ﴾ .

« ومنها : ما للعقل فيه نور ضئيل تخالطه الأوهام، وهو مواضع الشبهات العقلية، كالربا والصدق الضار والكذب النافع .. وفي هذا القسم يجيء الشرع مقويا لنور العقل، بتصحيح أخطاء الوهم، وترجيح جانب الحكمة والرشد، قال تعالى في سورة الروم: ﴿ وَمَا آتَيْنَا مِنْ رَبٍّ لِيُرِيَهُمْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ زَكَاةٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضَعِفُونَ (٣٩) ﴾ ، وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ

شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) ، وقال في سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِن تَلَوُوا أَوْ نَعَرْتُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (١٣٥) .

◀ ومنها : مَا لَا مَدْخَلَ لِلْعُقُولِ فِيهِ كَالْعِبَادَاتِ، فيجبيء الشرع مكملا لما فات العقل إدراكه، وهكذا يكون لمن يتبعون شريعة العقل وحدها نور واحد، ولأهل الشرائع السماوية نوران، قال تعالى في سورة النور: ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) .

وهل نور الشريعة فيما لم يهتد إليه العقل بمفرده قد استغنى عن نور الفطرة (الضمير) بالكلية ؟ لا ، فإنه لا يزال محتاجا إلى دوره للأمر الآتية:

• دور الضمير في الإسلام :

١- التبرير الفطري :

الشرع يستند إلى نور الضمير عند مطالبته المؤمنين بأداء واجباتهم الشرعية، لا باعتبارها أوامر إلهية فحسب، بل باعتبارها أوامر أخلاقية، بعدما التزموا بوجه عام بمقتضى عقد الإيمان، الذي ينطوي على السمع والطاعة لله، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿ وَأذِكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ، وقال في سورة الحديد: ﴿ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلْتُمْ مَسْتَخْفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنْقَضُوا لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٧) وَمِمَّا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) .

٢- تفصيل المجمل :

إن أوامر الشرع غالبا أوامر عامة كلية، ترك الشرع تحديدها وتفصيلها إلى تقدير الضمير الخلقي الموجود في كل نفس وفي كل جماعة بشرية، بل كثيرا ما صرح القرآن الكريم بتفويض هذا الضمير الشخصي أو الجماعي في تحديد مقادير الواجبات وفي أساليب أداء الحقوق، قال تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُنَا رِجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشَّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِجْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ إِجْدَاهُمَا الْأُخْرَى... (٢٨٢) ، وقال في سورة البقرة أيضا: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَّمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارُّ وَالِدَةٌ بَوْلِدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ بَوْلِدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِن أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِن أَرَدْتُمْ أَنْ تُسْرِضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣) .

٣- الامتثال للواجب :

إن الإسلام لا يطلب ولا يرضى أن تنفذ أوامره تنفيذاً ألياً خضوعاً لحكمه، بل لا بد أولاً أن تسري أوامره إلى أعماق الضمير حتى يتشربها القلب، ثم تفيض عنه وقد تحولت إلى أوامر ذاتية انبعاثية، فإن أول خطوة في الامتثال للواجب هي

الإيمان بوجوبه وعدالته، ثم يحمل هذا الإلزام بعد ذلك إلى النفس عن طريق الضمير مشفوعاً بصوته المنبعث من الأعماق ينادي: "أيتها النفس: إن الله يأمرك أن تفعلني وأنا أمرك أن تطيعي أمره فإنه حق وعدل، وأنه لا خير لك في رده"، فإن لم ينبعث هذا التبليغ من الأعماق ولم يرتفع صوت الضمير الداخلي بتريديد ذلك الصوت السماوي، كان العمل عند ذلك هباءً عند الله وفي نظر الأخلاق، وفي هذا المعنى قال تعالى في سورة النساء: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٦٥) ، فالضمير إذن هو يريد الشرع الذي لا سبيل إلى الامتثال للواجب إلا عن طريقه، وكفى بذلك رفعا لمكانته في جوانب الشريعة.

٤- الاحتياط في المتشابه :

وبعدما بينت الشريعة الحلال الصريح والحرام الصريح تركت المنطقة التي يشتهر فيها الحكم، وفوضت للمرء أن يستفتي فيها قلبه ويتحرى طمأنينة نفسه أخذاً بالأحوط والأسلم.

فالأحوط إذا اشتبه في أمر هل هو واجب أم مندوب فإنه يفعلُه أخذاً بالأحوط كمن شك هل صلى العصر أم لا ، فيحتاط لأمره ويصلي، والأسلم إذا اشتبه في أمر هل هو حرام أم حلال وليس بعد دليل فإنه يتركه أخذاً بالأسلم، كمن شك هل تحل له هذه العروس أم لا ؟ بأن أخبرته امرأة أنها أخته من الرضاع فيتوخى الأسلم ويتركها.

فَعَنِ النَّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ﴿إِنَّ الْحَلَالَ بَيْنَ وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيْنَ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعَرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرعى حَوْلَ الْحِمَى يوشك أن يرتع فيه، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ حِمَى جَمِيٍّ أَلَا وَإِنَّ جَمِيَّ اللَّهِ مَجَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ﴾ (متفق عليه).

وَفِي الْمَسْنَدِ عَنِ وَابِصَةَ الْأَسَدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: ﴿أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لَا أَدَعُ شَيْئًا مِنَ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ إِلَّا سَأَلْتَهُ عَنْهُ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَسْتَفْتُونَهُ، فَجَعَلَتْ أَعْطَاهُمْ، قَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، قُلْتُ: دَعَوْنِي فَأَدْنُو مِنْهُ فَإِنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُو مِنْهُ، قَالَ: دَعَا وَابِصَةَ، أَدْنُ يَا وَابِصَةَ - مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا . قَالَ: فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى قَعَدْتُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: يَا وَابِصَةُ أَخْبِرْكَ أَوْ تَسْأَلْنِي؟ قُلْتُ: لَا بَلْ أَخْبِرْنِي، فَقَالَ: جِئْتُ تَسْأَلْنِي عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: نَعَمْ، فَجَمَعَ أَتَمَلُّهُ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِيَدَيْهِ فِي صَدْرِي وَيَقُولُ: يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ قَلْبَكَ وَاسْتَفْتِ نَفْسَكَ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ) ، الْبِرُّ مَا أَطْمَأْنَنْتَ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي النَّفْسِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْكَكَ النَّاسُ وَأَقْتَوْكَ﴾ (قال المحقق: إسنادُه ضعيفٌ لانقطاعه. الزبير أبو عبد السلام لم يسمع من أيوب) .

٥- محكمة الضمير في الآخرة :

وأخيراً فإن سلطان الضمير في نظر الإسلام لا ينتهي بانتهاء هذه الحياة بل إن له في المحاسبة في دار الجزاء دوراً مهماً، حيث يتقدم بين يدي فصل القضاء ويصدر حكمه على صاحبه قبل أن يصدر عليه الحكم الأعلى، قال تعالى في سورة

الإسراء: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اِقْرَأْ كِتَابِكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ... (١٥)﴾ .

وهكذا نرى أن قانون الأخلاق في الإسلام لم يقتصر على المصدر الإلهي وحده، ولم يهمل الجانب الإنساني كما زعم الغربيون، وإنما جمع في ذلك بين ما فرقه الناس باسم الدين وباسم الفلسفة.

كما وفق بين المصدرين، وأتى في ذلك بالمزيد (يمتاز بالجمع والتوفيق والتكميل وإن كان المراد بالجمع أن الوحي جاء معبراً عن الحقيقة من جميع وجوهها، وليس معناه التأثير بما جاء خارج الإسلام).

• الجزء :

وأما الحديث عن الجزاء ودعوى اختلاف طبيعته في نظر الدين عن طبيعته في نظر الفلسفة فإنه وإن سلم ذلك في بعض الأديان الأخرى فهو أبعد ما يكون عن وجهة النظر في الأخلاق الإسلامية.

نعم هذا الادعاء في الجملة أكثر انطباقاً على المسيحية منه على اليهودية . إن صحت نسبة كتبهما المعروفة إليهما . فقد كان الترغيب والترهيب في التوراة بعود وإيعادات عاجلة كلها في الحياة الدنيا ، وتكاد تستأثر بها النزعة المادية الخالصة والصحة والرخاء وكثرة الأولاد وهزيمة الأعداء للمطيعين ، وأضدادها لأضدادهم ، ثم جاء الإنجيل على العكس من ذلك ، يحول أنظار معتنقيه من ملك الأرض إلى ملكوت السماء ، ويبشر الخيرين بما أعد لهم في الآخرة من جزاء ، القرض الحسن بأحسن منه ..

أما القرآن الكريم فقد نظم هذين المسلكين المتباعدين في مسلك واحد ، قال تعالي في سورة النحل: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنبُوْتُهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسْبَةٌ وَلَا جَزَاءُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)﴾ ، ثم قام إلى جانب مهمة الجمع والتوفيق بمهمة البناء والتكميل، فوصف ما للفضيلة من الأجزاء والآثار المعنوية الصالحة (روحية وعقلية وخلقية وحسية ، عاجلة وأجلة) بحيث تتذوق كل نفس طعم الأمانة التي تشاقها :

﴿ قُضِيَ الرُّوحِيَّاتِ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ (١٠)﴾ (سورة فاطر) ، ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١)﴾ (سورة آل عمران) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠)﴾ (سورة غافر) .

﴿ وفي العقلیات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)﴾ (سورة الأنفال) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)﴾ (سورة

الحديد) ، ﴿ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُوا اللَّهَ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢٨٢) ﴿ سورة البقرة) .

﴿ وفي الأخلاقيات: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لِنَهْدِيَهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٦٩) ﴿ سورة العنكبوت) ، ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآيَاتِهِمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ (١٧) ﴿ سورة محمد ﷺ) ، ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ إِلَهُهُ قُلُوبَهُمْ وَإِلَهُهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (٥) ﴿ سورة الصف) ، ﴿ يَنْتِظِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ (٢٧) ﴿ سورة إبراهيم) .

﴿ وفي الحسيات العاجلة: ﴿ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جِبَاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) ﴾ (سورة نوح) ، ﴿ وَإِنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴾ (٣) ﴿ سورة هود) ، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَأَتَقُوا لِفَتْحِنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (٩٦) ﴿ سورة الأعراف) ، ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزُّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (١٠٥) ﴿ سورة الأنبياء) .

﴿ وفي الحسيات الآجلة: ﴿ الْأَجَلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (٦٧) يَا عِبَادِ لَا خَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ (٧٠) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٧١) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢) لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ (٧٣) ﴿ سورة الزخرف) .

ومن أجل هذه الجزاءات القرآنية نعمة الرضا والارتياح لأداء الواجب، وهي المتعة التي تزعم الفلسفة استثنائها بها: ﴿ وَجُودُهُ يَوْمَئِذٍ نَاعِمَةٌ (٨) لِسَعِيدِهَا رَاضِيَةٌ (٩) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (١٠) لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةٍ (١١) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (١٢) فِيهَا سُرُرٌ مَرْفُوعَةٌ (١٣) وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ (١٤) وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (١٥) وَزُرَابِي مَبْتُوثَةٌ (١٦) ﴾ (سورة الغاشية) ، وفي الحديث الشريف: ﴿ من ساعته سيئته وسرته حسنته فهو مؤمن ﴾ (رواه الإمام أحمد والنسائي) .

ويحاول الجاهلون المقارنة بين صورة الجنة في الإسلام وفي المسيحية، فوصفوا الأولى بأنها دار طعام وشراب ومتعة بدنية خالصة، والثانية بأنها دار حياة روحية صافية، وقد أخطأوا في الحالتين، فالجنة في القرآن والإنجيل كما يعرف بالرجوع إلى نصوصهما دار نعيم بدني وروحي معا، لأنها جزاء للإنسان في جملة جسمه وروحه، لا في أحد شطريه دون الآخر.

على أن القرآن يضيف إلى الجزئين بيان التفاوت العظيم بين قيمتهما، ويجعل المعنى الروحي منهما هو المقصود الأهم، فبعد ذكر المساكن الطيبة في جنات عدن، ذكر الرضوان من الله أكبر، قال تعالي في سورة التوبة: ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٍ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (٧٢) ،

نعم، إن الجوائز المادية والمتعة البدنية ليست قيمتها في صورتها ومادتها فقط ؛ وإنما في مغزاها ودلالاتها، وهو التكريم والرضوان الذي أشار إليه القرآن .

وقد أشار إلى مثل ذلك في الطرف المقابل وهو النار إذا لاحظنا أن ما يخشاه العاقل منها ليس هو آلامها الحسية فحسب ؛ وإنما دلالتها على الخزي والمهانة، قال تعالى في سورة آل عمران عن أولي الألباب: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تَدْخُلُ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) ﴾ ، وهذا هو تحقيق الحق في شأن الأجزية الدينية والفلسفية والإسلامية . (وقد توسع في موضوع الجزاء: دراز ١٤٠٢هـ: ص ٤١٧، ٢٤٣) .

• النية والقصد :

كثيرا ما يلتبس الأمر على بعض الناس بين أجزية العمل وثمرته ونتيجته من جهة . وهو ما يسمى بالغاية الفعلية . وبين أهداف العامل وغايته، أو نية العامل وقصده . وهو ما يسمى بالغاية القصدية . ولهذا يظنون أن وضع إحداهما هو وضع للأخرى، فكان الإسلام يلوح للمؤمنين أن يقصدوا بأعمالهم تلك النتائج والثمرات كلها أو بعضها على التخيير، ومن هنا أخذوا يقولون: إن العمل الخلقى عند المسلم هو عمل حسابي لموازنة الربح والخسارة، وليس عملا خلقيا بريئا مجردا عن الأغراض والغايات.

وليس الأمر كما زعموا، فإن الأجزية التي قررها القرآن لا تكاد تحصى، وأما الهدف فالذي وضعه للعامل فهو هدف واحد لا تعدد فيه ولا تردد، وهو وجه الله محضا خالصا، وهذا تعبير قرآني عن معنى أداء الواجب لذاته الذي يتغنى به الأخلاقيون، وهو معنى تجده في الآيات في مئات المواضع . وكلها تحث على الفضيلة لما لها من قيمة ذاتية، بغض النظر عن آثارها وثمرتها، على أن هذه الأجزية الكريمة التي وعد بها المتقين إنما وعد بها من كانت غايته وجه الله وحده، فهو الذي: ﴿ مِنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) ﴾ (سورة الشعراء)، وهو الذي: ﴿ مَنْ حَشَى الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣) ﴾ (سورة ق) ، وهو الذي كان عمله: ﴿ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أما ما وراء هذه النية من مطامح ومطامع فهو إما رياء وسمعة ونحو ذلك، وإما مباح لا قيمة له ولا ثواب، ومن هذا النوع الأخير أن يكون هدف العامل هو الجنة وما فيها من نعيم، فليُنظر كل امرئ أين يضع نفسه؟ وأين يوجه نيته وقصده ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مَوْلِيهَا فَاستَبِقُوا الخَيْرَاتِ ﴾ (سورة البقرة) . انظر للتوسع: (دراز ١٤١٧هـ: الفصل الثالث: ص ١٣٠، ٦٩) .

الغاية والهدف والقصد	النتيجة والثمرة والجزاء	العمل
التربية والتأديب	إيلامه	ضرب الولد
التربية والتهذيب	إيلامه	حبس المذنب
وجه الله	سد حاجتهم	مساعدة الفقراء
الحصول على الحق	قتل وإيلام	محاربة العدو
حماية المجتمع	عقوبات	محاربة الانحراف

• الأخلاق الإسلامية أخلاق دينية :

وهكذا أصبح من الواضح أننا لا نستطيع أن نطلق على أخلاق القرآن الأخلاق الدينية بالمعنى الذي يريده الغربيون، لا من حيث الموضوع، ولا من حيث

مصدر التشريع أو الأساس المسوغ له، ولا من حيث الجزاء، بعد ما تبين لنا أن الجانب الديني لا يخالط هذه الأمور إلا باعتباره عنصرا واحدا في تركيب كبير جدا.

ومع ذلك فهناك نقطة لا يظهر ولا يغلب عليها الطابع الديني فحسب ؛ بل إنه يحتل كل مجال الضمير الأخلاقي، وبذلك يجعل من الممكن بل من الضروري أن نطلق على هذه الأخلاق الإسلامية لقب الأخلاق الدينية، وهذه النقطة هي النية، وهي جانب القصد، وفيها ينفرد المعنى الديني حقا بدون منازع.

إن الهدف الذي ينبغي للمؤمن الطائع أن يتوخاه ويحرص عليه في نشاطه وهو يؤدي واجبه لا يمكن في طبيبات هذه الدنيا كما يقول بعض الفلاسفة، ولا في السرور الأخرى كما يقول بعض المتدينين، ولا في إشباع شعوره الخير أو إكمال وجوده الباطن، كما يقول الأخلاقيون ؛ وإنما الهدف هو الله وحده ، الله الذي يجب أن يكون نصب أعيننا، وأية غاية أخرى تدفع الإنسان للعمل هي في ذاتها عديمة القيمة، بل هي في ذاتها انتفاء للقيمة وعدم.

ومع هذا فلا شك أننا نخاف ونرجو، وبوسعنا أن ننشد رفاهية المادية والأخلاقية لذاتها، أو لأن هذا واجبنا أو حقنا، ولكن لا ، لأن ذلك أجرا على طاعتنا. فإن ذلك لو حدث يكون على الأقل مخالفة للأخلاقية.

• الحس الأخلاقي :

تعريفه: لقد أودع الخالق العظيم في مدارك العقول، وفي مشاعر الوجدان، قوة فطرية ندرك بها فضائل الأخلاق ورذائلها، ونميز بينهما، وهذه القوة هي ما يسمى بالحس الأخلاقي.

فالإنسان في أعماق نفسه يحس بهذه القوة، وهي تحذره من فعل الشر إذا زين له، وتحاول أن تصده عن فعله، فإذا هو أصر عليه، وهمم بإتيانه، أحس بعدم الارتياح أثناء الفعل، لعصيانه تلك القوة، حتى إذا أتم عمله، أخذت هذه القوة توبخه على الإتيان به، وأخذ يندم على ما فعل.

ويحس كذلك بهذه القوة وهي تأمره بفعل الخير، فإذا بدأ في عمله شجعتة على الاستمرار فيه، فإذا انتهى منه شعر بارتياح وسرور.

ولهذا يشعر الناس بقبح العمل القبيح وينفرون منه، ويشعرون بحسن العمل الحسن ويرتاحون إليه، وبذلك يمدحون فاعل الخير، ويذمون فاعل الشر.

وهذه القوة المعنوية الكاشفة الهادية، الأمرة الناهية، المحذرة المحرصة، الحاكمة المنفذة، هي التي سماها علماء الأخلاق (الضمير)، أو (الوجدان)، أو (الحس الأخلاقي).. وسماها الإسلام (البصيرة)، أو (القلب)، أو (النفوس اللوامة).. وعلى هذا :

• فالضمير :

« قوة في النفس أمرة ناهية، تسبق العمل وتقارنه وتلحقه.

« فتسبقه بالإرشاد إلى عمل الخير والطاعة، والتحذير من عمل الشر والمعصية.

« وتقارنه بالبحث على إتمام العمل الصالح والكف عن العمل السيء .
« وتلحقه بالإحساس بالارتياح والسرور عند عمل الطاعة، والإحساس بالألم والوخز عند عمل المعصية .

• وجوده ومراحل عمله :

- وقد أرشدت النصوص الشرعية إلى:
- « وجود هذه القوة في النفس (الحس الأخلاقي) أو (القلب) أو (الضمير) .
« وأحالت المسلم إلى استفتاء قلبه في حكم السلوك الذي قد تميل نفسه إلى ممارسته .
« كما عرفتنا كذلك بوظائف هذه القوة وأعمالها . فهي :
- ✓ مدركة، معرفة، كاشفة، هادية، (تدرك الخير وتهدينا إليه) .
 - ✓ وهي أمر، ناهية، محذرة، ومحرضة، (تأمرنا بعمل الخير وتحثنا على إتمامه، وتنهانا عن عمل الشر وتحذرننا من إتيانه) .
 - ✓ وهي حاكمة، ومنفذة، (تلاحق كل عمل من أعمالنا بحكمها الأخلاقي) .

وهذا هو دور الضمير في داخل النفس ومراحل عمله . قال تعالى في سورة الشمس: ﴿ وَيُنْفِيسُ مِمَّا سِوَاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾ ، فالنفس الإنسانية . منذ تكوينها وتسويتها . قد ألهمت في فطرتها إدراك طريق فجورها، وطريق تقواها، وهذا هو الحس الأخلاقي أو الضمير الذي ندرك به الخير والشر، ولذلك كان على الإنسان أن يزكي نفسه ويطهرها من الإثم حتى يظفر بالفلاح ، وإلا خاب سعيه .

وقال تعالى في سورة البلد: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ (٤) أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ (٥) يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) ﴾ ، فكما أن الإنسان لديه أدوات الحس الظاهر، فكذلك لديه حس باطن يدرك به طريقي الخير والشر . وهما الطريقتان الممتدان في أرض حياته الدنيا . ويختار لسلوكه ما يشاء منهما، ويتحمل بعد ذلك نتائج عمله .

وهذا الحس الباطن يشمل ما تدركه العقول بموازينها التي فطرها الله عليها، ويشمل ما تحس به الضمائر بمشاعرها الوجدانية التي فطرها الله عليها، ومن ذلك يتكون في الإنسان (الحس الأخلاقي) .

فهذا هو العهول الأول للضمير، وهو عمل إدراكي . ويقول الله تعالى في سورة القيامة: ﴿ لَا أَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ (١) وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ (٢) ﴾ ثم قال: ﴿ بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (١٥) ﴾ .

فالإنسان لديه بصيرة ، بها يستطيع محاسبة نفسه محاسبة أخلاقية، على أعماله، وعلى مقاصده من أعماله، ولومها إذا استحقت ذلك، ولو حاول في ظاهر أمره الدفاع عنها وإلقاء المعاذير . فالمحاسبة والتحذير والتنفير أو التحريض والتشجيع هي العمل الثاني للضمير، وهو عمل نزوعي سلوكي . وروى الإمام مسلم عن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا

حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ ﴿﴾ ، ففي هذا الحديث دلالة على أن النفس الإنسانية فيها حس أخلاقي بالإثم ، ولذلك فإن ممارسة الإثم . في العادة . يصحبها ويلحقها إحساس بالقلق والاضطراب وعدم اطمئنان النفس ويكره الأثم أن يطلع الناس على إثمه لأنه يعلم أنهم يشعرون بمثل ما يشعر وذلك بالحس الأخلاقي (الضمير) الموجود في أعماق نفوسهم .

وروي الإمام أحمد والدارمي بإسناد حسن عن وابصة بن معبد ؓ قال: أتيت رسول الله ﷺ فقال: ﴿ جئت تسأل عن البر؟ قلت: نعم ، فقال: استتفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك ﴾ . وفي هذا الحديث جمع الرسول ﷺ فضائل الأخلاق كلها تحت عنوان (البر)، ورتائل الأخلاق كلها تحت عنوان (الإثم)، وقد تضمن الحديث بيانا واضحا للضمير، وذلك على الوجه الآتي :

« إذا كان الضمير سليما من العلل والأمراض، نقيًا صافيا، فإنه يستطيع أن يحس بفضائل الأخلاق ومحاسن السلوك، وأضدادها، وأن يميز بينها، ففي قول الحديث: ﴿ البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ﴾ دليل على أن النفس الإنسانية، وكذا القلب، فيها حاسة أخلاقية تحس بها الخير والشر، والقلب أولى بذلك .

« وفي الحديث إشارة إلى مواقع الضمير، فهو موجود في النفس وموجود في القلب، أو أن آثاره تظهر فيهما .

« (البر): (المفسر في الحديث السابق بأنه حسن الخلق) يفعله الإنسان السوي، وهو مطمئن للنفس، مطمئن للقلب، أما (الإثم) فإن الإنسان السوي لا يفعله إلا وهو في نفسه قلق منه، وفي صدره تردد واضطراب .

« طمأنينة النفس والقلب علامة على أن العمل هو من أعمال البر، والتردد والاضطراب فيهما وخوف اطلاع الناس على العمل . أو على الغرض منه . علامة على أنه من أعمال الإثم .

فالطمأنينة والارتياح أو القلق والتردد والاضطراب هما العمل الثالث للضمير . وهو عمل معياري مقياسي . أو بعبارة أخرى (الحكم الأخلاقي) .

وهكذا فإن العمل الأخلاقي للضمير بدايته إدراك وتعريف، ونهايته حكم وتقدير، وبينهما مرحلة الحث والتحريض .. وإذا كان الحكم يرتبط بالإدراك والمعرفة فإنه يمكن أن نلحق أحدهما بالآخر، ويكون عمل الضمير هو :

« الحكم الأخلاقي .
« الحث والتحريض وما يتبعه من عمل سلوكي . فما قيمة عمل الضمير فيهما ؟

• عصمة الضمير الأخلاقي خرافة :

يدعي البعض:

- « أن الضمير الأخلاقي قوة فطرية معصومة بطبيعتها .
- « وأنه تبعاً لذلك يمكن الإستغناء بالضمير الأخلاقي عن الدين والإيمان .
- « واتخاذ بدل الدين أساسا ومقياسا للأخلاق .
- وهذا كله خطأ في خطأ .

ذلك أن شؤون الإنسان على ثلاثة أقسام:

« منها : ما لا دخل للضمير فيه كالعبادات وطرقها وتفصيلها، فلو ترك أمرها للضمير فإما أن يبقى الإنسان متحيراً لا يفعل شيئاً، وإما أن يلجأ إلى الخيال، والضمير في ذلك قاصر، ونوره ناقص يحتاج إلى التكميل.. وحكم الضمير ينقصه الشمول.

« ومنها ما للضمير فيه نور ضئيل تخالطه الأوهام، وهو مواضع الشبهات كالربا والصدق والضرار والكذب النافع وغيرها، فقد يختلط عليه الأمر في بعض الأعمال ويلتبس عليه وجه الحق فيها، وقد يكون ذلك راجعاً إلى اشتباه القضية الأخلاقية، وغموض مدرك الحكم فيها، وعدم ظهور وجه الحق والخير، أو إلى ضعف نور الضمير الفطري بسبب إهماله أو بسبب سوء تربيته، فتطغى عليه الأهواء والشهوات، أو العادات والتقاليد، أو تأثير القادة المضلين، أو الشياطين الموسوسين من الجن والإنس.. ولذلك ينبغي أن يتعرض لنوع من الكبح، وأن يظفر بجملة من التوجيهات، وإلا فإن اليقين الأخلاقي سوف يتحول تدريجياً إلى أوهام وصنوف من الشك، وضروب من الضلال.

وأن من يعتمد على أحكام الضمير في مجال الفرد أو في مجال المجتمع يعوزه الاطمئنان، ويقع في حيرة.. لأنه لن يجد جواباً واحداً ولا اتجاهاً واحداً. ففي مجال الفرد: ما واجبنا تجاه عواطفنا وغرائزنا؟ أمن الواجب ألا نستجيب لشيء من غرائزنا وشهواتنا، وأن نعرض على أنفسنا الآلام والتعسف وألوان القهر كما تقول البوذية؟ أم أنه يكفي التظاهر بنوع من اللامبالاة تجاه ضروب الخير والشر كلها في هذا العالم كما يفعل الرواقيون؟ أم أن الواجب هو أن نستجيب للمذات الحية سواء في حكمة وانتقاء كما يقول النفعيون؟ أو بلا قاعدة ولا منهج كما يقول أصحاب مذهب السعادة؟ إنها مذاهب كثيرة..

وفي مجال المجتمع: في علاقتنا بالناس هل نعاملهم بالقصاص أم بالعفو أم بالخيار؟ بالتحفظ والعزلة أم بالمعاشرة والمخالطة؟ بالأثرة أم بالإيثار؟ إنها مذاهب كثيرة والضمائر تعارضها ضمائر.. والمرء يقع في حيرة ويتعطش إلى الاطمئنان.. وحكم الضمير في ذلك ينقصه الموضوعية. والضمير في أحكامه متأرجح متقلب لا يستقر له قرار، فإن حكمه في المسألة الواحدة يختلف باختلاف العصور، وباختلاف الأمم في العصر الواحد، وباختلاف البيئات في الأمة الواحدة، وباختلاف الأفراد في البيئة الواحدة، تبعاً لاختلاف الأفكار والثقافات، وباختلاف الأحوال في الفرد الواحد، تبعاً لمعلوماته المتجددة، وتأثره المختلف في بيئاته المختلفة.. وهكذا حكم الضمير الأخلاقي ينقصه الثبات والاستقرار.

« ومن شؤون الإنسان البديهيّات التي تتفق عليها الضمائر السوية، وفي هذا المجال حتى لو ثبت الضمير على حالة واحدة اتجاه مسألة معينة فإنه مع ذلك يتأرجح، قوة وضعفاً، واعتدالاً وشططاً، ولهذا فإن حكم الضمير لن

يصلح مقياساً للأخلاق، ولن يفيده اليقين للإنسان إلا إذا اعتقد المرء أنه يعبر عن الحقيقة الخلقية في ذاتها، لا عن حقيقة نسبية تختلف باختلاف المشاعر والأفراد، والزمان والمكان، وهذا في غيبة الشرع أمر بعيد. فحكم الضمير الأخلاقي المجرد في العبادات ينقصه الشمول، وفي المتشابهات ينقصه الموضوعية والثبات، وفي البديهيات ينقصه اليقين، ولن يصلح بمفرده مقياساً للأخلاق.

ولقد رأينا أناساً في ظل العقل الإنساني، والضمير الإنساني، وباسمهما: يرون الإلحاد تفكيراً حسناً، والزنا عملاً عادياً، والربا قاعدة عادلة، وظلم الإنسان أو الأمم المختلفة شيئاً لا حرج فيه، واحتقار جنس ما حقاً لجنس آخر والحضارة التي تسود الشرق والغرب جميعاً وإن أغضت عن قيام فكرة الألوهية وسلمت لبعض الأتباع الحائنين عليها، فهي في ظل العقل الإنساني والضمير الإنساني كما يقال: لا تسمح بامتدادها إلى خلق أو سلوك أو سياسة.

كأن الخلق والسلوك والسياسة يجب أن تعزل عن الله، لماذا؟ لا أدري !. فما قيمة عقل يصد عن الله؟ وضمير يستسيغ ذلك الصدود؟ وهكذا فإن أحكام الضمير الأخلاقي قد تقع. بل وقعت فعلاً. في أخطاء كثيرة. ومن أوضح الأمثلة على ذلك محكمة التفتيش في إسبانيا، ففي عهد (فرديناند Ferdinand) و (إيزابيلا Isabella) ملكي إسبانيا عين مفتشون لمحاكمة من خرج على الدين الكاثوليكي من مسلمين وغيرهم، فكان يؤتى أمامهم بمن يتهم بالخروج على الكتلكة، فإن أجاب حتى بما يتفق مع هذا الدين لم يقبلوا منه، وعذبوه حتى يضطره العذاب أن يقول ما يخالف الدين، فيأمر المفتشون بإحراقه حياً أو تعذيبه عذاباً شديداً، فكان مجموع من أحرق في السنة الأولى ٢٠٨ في إسبيليا، وأكثر من ٢٠٠ في البلاد الأخرى، واتسعت سلطتهم فكانوا يتدخلون حتى في أسرار الناس، فحبسوا كل من يتهم بالزندقة، وأهملوا المتهمين في السجون ما شاءوا من غير أن يحاكموهم، وكان أخلص الناس للكتلكة عرضة للتهمة، ولا يقال للمتهم عن اتهمه، وبذلك عذب مئات الألوف، وكان أكثر القائمين بهذا التعذيب معتقدين الحق فيما فعلوه، وأتهم يطيعون ضميرهم فيما يفعلون !. (أمين ١٩٧٤م: ص ٥٨).

فالضمير قوة فطرية حقاً ولكنها قوة غير معصومة عن الخطأ لأنها تربي وتكتسب، وما تتخذ من أحكام فإنه ثمرة لما تتلقاه من تربية وتوجيه.

• الضمير الديني وأحكامه :

قلنا: إن أحكام الضمير الأخلاقي . ما دامت بمعزل عن الدين . ينقصها الشمول والموضوعية والثبات واليقين. ولهذا لا تصلح وحدها مقياساً للأخلاق وأن الأمر قد يختلط عليه في بعض الأمور، إما لدقة القضية الأخلاقية فلا يظهر له فيها وجه الحق والخير، وإما لضعف نوره الفطري، بسبب الإهمال أو بسبب سوء التربية.. ولذلك ينبغي أن يتعرض لنوع من الكبح، وأن يظفر بجملة من التوجيهات.

• الضمير الديني :

فإنه في أحكامه يستعصم بالشرع، ويكون في هيمنته دائماً، وذلك على الوجه الآتي:

« فأما الأمور التي يتضح فيها وجه الحق أي البديهيات ويكون للضمير فيها مجال واضح، وحكم حاسم، وهي الأمور التي اتفقت عليها الضمائر، ولم يختلف فيها اثنان، مثل: الصدق النافع حسن، والكذب إضرار قبيح، ففي هذا النوع يجيء الشرع مقرراً لحكم الفطرة والضمير ومؤيداً..

« وأما الأمور التي يكون للضمير فيها نور ضئيل، وهي مواضع الشبهات مثل: الصدق الضار، والكذب النافع، والربا.. ففي هذا النوع يجيء الشرع مقويًا لنور الفطرة والضمير، بتصحيح أخطائه، وترجيح جانب الحكمة والرشد فيه.

« وأما الأمور التي لا مدخل للضمير فيها كالعبادات فيجيء الشرع مكملًا لما فات الضمير إدراكه.

وهكذا.. فإن أحكام الضمير الديني تمتاز على أحكام الضمير الأخلاقي بالشمول والموضوعية والثبات واليقين، وبذلك أصبح له دوراً أساسياً في أخلاق الإسلام في ضوء الشرع وهيمنته، من:

« التعليل الفطري لأحكام الشريعة.

« تفصيل المجمل وبيان المبهم.

« الضمير بريد الشرع وطريق الامتثال إلى أوامره.

« الاحتياط في أمر المتشابه.

« المحاسبة في دار الجزاء.

وقد سبق بيان ذلك بالتفصيل .

• مراتب الضمير :

وللضمير ثلاث مراتب :

« المرتبة الأولى: الضمير الاجتماعي: وهو الشعور بضرورة عمل الواجب خوفاً من لوم الناس، وبسببه يؤدي صاحبه العمل، ولولاه ما نهجه، وهذا الشعور نجده عند كثير من الناس، فبعض الجنود لا يفرون من ميدان القتال اتقاء التعيير، وكثير من الناس يصدقون حتى لا يعرف عنهم الكذب فيفقدون احترام الناس، ومنه نرى بعض الناس يبخل على أحد أقاربه بثمن الدواء لأن أحداً لا يطلع على ذلك، فإذا مات المريض بادر بالإفراق عن سعة في مراسم الجنازة خوفاً من التعيير.. وبعض الناس لا يظهر الجزع عند النازلة اتقاء الشماتة... وهكذا.

وعيب الضمير في هذه المرتبة أن صاحبه لو أمن اطلاع الناس أو لومهم وقع في الرذائل.. وكذلك لو انتقل من بيئة إلى أخرى لا يبالي، أو تعود الرذائل فإنه يأتي الشر ولا يتردد.

« المرتبة الثانية: الضمير الأخلاقي: وهو الشعور بضرورة عمل الواجب واتباع القوانين . أخلاقية أو وضعية . سرا وجهرا . وهذا النوع أرقى من النوع الأول لأن صاحبه يلزم نفسه بالخضوع للقوانين، ولو أمن اطلاع الناس، ولو أمن

العقوبة، فيؤدي الأمانة إلى أهلها ولو لم يكن عليه شهود، ويحافظ على الوعود التي يقطعها، والعقود التي يبرمها، لأن قانون الأخلاق يأمره بالوفاء، والقانون الوضعي يلزمه بتنفيذ العقد وهو خاضع لهما وأكثر الأخير من هذا النوع.

◀ المرتبة الثالثة: الضمير الديني: وهي مرتبة الخاصة والمصلحين وأهل الإيمان واليقين، وهي الشعور بضرورة اتباع ما يراه حقا ويعتقده، خالف الناس في رأيهم أم وافقهم، خالف القوانين المتعارفة عند الناس أم لا . وهذا هو أرقى أنواع الضمير، وهو الضمير الديني الذي يأمر أتباعه باتباع ما يقضي به دينه واعتقاده مهما كلفه ذلك من الصعاب. وصاحب هذا الضمير لا يتقيد إلا بما يعتقده الحق، فينظر في القواعد والقوانين ليعرف أساس الحق فيها، فإن وصل إليه عمل به، وإن خالف الأمة كلها . (انظر: أمين ١٩٧٤م: ص ٧٣ وما بعدها بتصرف).

وقد يصل الأمر بصاحب هذا الضمير إلى أن يعيش الحق، والتضحية بالنفس والمال في سبيل نصرته وتأييده. وهذه هي مرتبة الأنبياء والمصلحين والدعاة الذين يدعون الناس إلى الحق ولا يخشون في الله لومة لائم، ويعملون وفق عقيدتهم وإن عبدوا وأهينوا وماتوا...

ومنهم سحرة فرعون الذين آمنوا لما رأوا الحق مع موسى عليه السلام ، قال تعالى في سورة طه عنهم وعن فرعون: ﴿ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَأَلْقَطَعْنَا أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَ آيُنَا أَشَدَّ عَذَابًا وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِنَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَبِيرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦) ﴾ ، وفي سورة الشعراء يقول تعالى: ﴿ فَأَلْقَى السِّحْرَ سَاحِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتَكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١) ﴾ .

ومنهم ماشطة ابنة فرعون: وفي قصتها رضي الله عنها: ما أخرج ابن ماجه وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما عن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ ليلة أسري بي وجدت ريحا طيبة، فقلت: يا جبريل، ما هذه؟ قال: هذه الماشطة وزوجها وابنها، بينما هي تمشط ابنة فرعون إذ سقط المشط من يدها، فقالت: تعس فرعون، فأخبرت أباه، وكان للمرأة ابنان وزوج، فأرسل إليهم، فراود المرأة وزوجها أن يرجعا عن دينهما، فأبيا، فقال: إني قاتلكما، فقالا: إحسان منك إلينا، إن قتلنا أن تجعلنا في بيت، ففعل صلى الله عليه وسلم فلما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم وجد ريحا

طيبة، فسأل جبريل عليه السلام فأخبره . وللتوسع في هذه القصة انظر: (تفسير البغوي ١٤١٧هـ: ج٨، ص٤١٩) و (تفسير الخازن: ج٦، ص٢٦٠).

ومنهم امرأة فرعون آسية بنت مزامح رضي الله عنها الذي قال الله عنها في سورة التحريم: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَاتٍ فَرَعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ إِنَّ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجَّيْتَنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجَّيْتَنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١١) ﴾ (انظر: تفسير ابن كثير ١٤٠٠هـ: ج٤، ص٣٩٣) و (تفسير الطبري ١٤٠٨هـ: ج ٢٨ ، ص ١٧١).

وعلى رأس أصحاب هذا الضمير الذين يعشقون الحق، والتضحية بالنفس والمال في سبيل نصرته وتأييده ، ولا يخشون في الله لومة لائم، وإن عذبوا وأهينوا وماتوا.. حبيننا وقدوتنا رسول الله محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم في جميع مواقفه، ومنها: لما هددت قريش عمه أبا طالب بالقتال إذا لم يمنع محمدا صلى الله عليه وسلم من دعوته ، فقال أبو طالب: يا بني أبق علي وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فقال صلى الله عليه وسلم في ثباته على الحق: ﴿ وَاللَّهِ يَا عَمَّ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرَكَ هَذَا الْأَمْرَ مَا تَرَكْتَهُ حَتَّى يَظْهَرَ اللَّهُ أَوْ أَهْلَكَ دُونَهُ ﴾ (سيرة ابن هشام: ج١، ص٢٦٦ ، وإسناده ضعيف ، ولكن رواه: البخاري في التاريخ ، والطبراني في الكبير ، والحاكم في المستدرک ، بلفظ مقارب إسناده حسن : انظر: الألباني: السلسلة الصحيحة: ج١، ص١٤٨).

فصاحب الضمير الاجتماعي يلزم نفسه أمام المجتمع، وصاحب الضمير الأخلاقي يلزم نفسه أمام نفسه، وصاحب الضمير الديني يلزم نفسه أمام دينه وعقيدته. وهذه المراتب الثلاثة للضمير بعضها يؤدي إلى بعض.

فبترتبة الضمير يتدرج الإنسان في الترقى من مرتبة إلى أخرى، وأعلاها هي مرتبة الضمير الديني، وأدناها هي مرتبة الضمير الاجتماعي، وبينهما هي مرتبة الضمير الأخلاقي.

• تربية الضمير :

الضمير الأخلاقي ملكة للنفس، وقوة فطرية لها، وهو كباقي القوى والملكات يخضع لأصول التربية وقواعدها، وتؤثر فيه عوامل القوة والضعف والإفساد، فالإهمال يضعفه، والتربية الصالحة تنميّه وتقويه، والتربية المفسدة تجعل منه جندياً من جنود شيطان الإنسان، ومؤزراً له في الوسواس والنزعات.

• عوامل إضعاف الضمير :

فبالإهمال تربية الضمير أو عصيانه بضعف أو يموت، كمن عنده موهبة الشعر فيهمل صقلها من القراءة والتدريب فتضعف شيئاً فشيئاً ثم تموت، فكذلك الضمير يأمر مرة بعمل من أعمال الخير فتعصي أمره وتحس بالألم الشديد اللاذع، فإذا عدت إلى عصيانه أحسست في كل مرة بالألم دون الألم الذي قبله، وفي النهاية لا تشعر عند معصيته بأي نوع من أنواع الألم أو اللوم أو التأنيب لأن الضمير قد تضعف وأصبح صوته خافتاً، وأمسى سلطانه ضعيفاً .

وقد جاء في شعب الإيمان ومصنف ابن أبي شيبة عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه :
 إِنَّ الرَّجُلَ لِيَذُنِبَ الذَّنْبَ فَيُنْكِتُ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةً سَوْدَاءً ، ثُمَّ يَذُنِبُ الذَّنْبَ فَتُنْكِتُ
 أُخْرَى ، حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ لَوْنُ الشَّاةِ الرَّبْدَاءِ ، إِلَى أَنْ يَطْبَعَ عَلَى قَلْبِهِ ، فَذَلِكُمْ الرَّانُ
 الَّذِي قَالَ اللَّهُ فِيهِ فِي سُورَةِ الْمُطَفِّينَ : ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ (١٤) ﴾ ، ويقول الحسن : « إن بين العبد وربه قدرا معلوما من المعاصي ،
 فإذا بلغه لا يوفق بعده إلى خير أبدا » .

وكذلك يضعف الضمير بصحبة الأشرار ومخالطتهم، أو إطالة القراءة في
 الكتب الهابطة أو التعرض لمثلها من وسائل الإعلام والتوجيه. وفي هذا المعنى
 جاء في الحديث الصحيح المتفق عليه: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ
 السَّوِّءِ كَمَا مِلَ الْمَسْكُ وَنَافِخِ الْكَبِيرِ ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ ، وَإِمَّا أَنْ
 تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخِ الْكَبِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ
 تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً ﴾ .

• عوامل تقوية الضمير :

ومن عوامل تقوية الضمير وتنميته دراسة فضائل الأخلاق وثمراتها العاجلة
 والأجلة في حياة الفرد وفي حياة المجتمع، وممارسة عواطف الخير وطاعة الضمير
 في حثه على ذلك، فيرقى إحساسه، ويعظم سلطانه، وكذلك المواعظ الدينية
 والنصائح الربانية ووسائل الترغيب والترهيب، ودراسة الكتب النافعة، وقصص
 البطولات الأخلاقية، والقدوة الصالحة الحسنة.

فإن كبار المصلحين في كل أمة يقوون الضمير ويزيدون في
 إحساسه، ويشعرون الناس بأهمية دعوتهم، فيلهبون وجدانهم بما يقولون أو
 يكتبون.

• عوامل إفساد الضمير :

وقد يتحول الضمير الأخلاقي إلى أداة للإفساد وذلك عند فساد تربيته، بأن
 تطغى عليه الأهواء والشهوات أو العادات والتقاليد، أو يؤثر عليه القادة المزلون،
 أو الشياطين الموسوسون من الإنس والجن.

وهكذا الضمير قوة فطرية في النفس، تتأثر بما تتلقاه من معلومات،
 وتوجيهات وثقافة، وبعدها تكون حالتها من القوة والضعف، ومن الهداية
 والضلال.

• منهج التربية الإسلامية في تربية الضمير :

• أولاً : تربية الضمير الأخلاقي :

وقد حرص الإسلام على تربية الضمير الأخلاقي وتهذيبه وذلك بأمرين:

« إيقاظ الضمير بتقوية شعوره بالقيمة الخلقية، وفي القرآن الكريم أكثر من
 ألف موضع، كلها تأمر بالفضيلة لذاتها، وما فيها من قيمة ذاتية وطهر
 وسمو، أو تنهى عن الرذيلة لذاتها ولما فيها من فحش وسقوط.

◀ كما عمل على تدريبه وتمرينه وإنارة السبيل أمامه، بعرض كثير من الأحكام الخلقية:

✓ ففي النهي عن الغيبة قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢) ﴾ .

✓ وفي النهي عن الكبر والعجب قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلِّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ﴾ .

✓ وفي النهي عن الزنا قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَلَا تَقْرُبُوا الزُّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) ﴾ .

✓ وفي الأمر بغض البصر قال تعالى في سورة النور: ﴿ قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ بَعْضُوا مِمَّنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فَرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنْ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ بَعْضُضُنَّ مِمَّنْ أَبْصَارُهُنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ... ﴾ .

✓ وفي الأمر بالاحتياط والتبني قبل الحكم على الآخرين قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِحِّحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) ﴾ .

✓ وفي الدفيع بالتي هي أحسن قال تعالى في سورة فصلت: ﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥) ﴾ .

• ثانياً : تربية الضمير الاجتماعي :

كما حرص الإسلام على تربية الضمير الاجتماعي وتهذيبه وذلك بأمرين:

١- إيقاظ الضمير بتفوية شعوره بالقيمة الاجتماعية وأهمية الرأي العام :

عند الله يرفع ويخفض، كما أنه دليل على رضوان الله أو بغضه. ففي صحيح مسلم قال ﷺ: ﴿ إِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيَحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيَحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ: ثُمَّ يُوَضَّعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يَنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يَبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوَضَّعُ لَهُ الْبِغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ ﴾ .

ويحذرنا القرآن الكريم من أحكام الرأي العام العادلة ضدنا، فيقول سبحانه في سورة البقرة: ﴿ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حِجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمِ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٠) ﴾ . كما بين القرآن الكريم أن نقمة الصالحين على المفسدين عقوبة تضاف إلى نقمته تعالى عليهم، قال سبحانه في سورة البقرة: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ

وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠) ، ثم قال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٦١) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (١٦٢) .

كما جعل ثناء الصالحين مكافأة تضيء إلى ثوابه تعالى، فقال سبحانه في سورة الأحزاب: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤) ، وقال في نفس السورة: ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) .

وقد كان موقف الرسل عليهم السلام واضحا في العناية بموقف الرأي العام: ﴿ فَأَبْرَاهِيمَ النَّبِيَّ يَقُولُ: ﴿ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) ﴾ (سورة الشعراء).

﴿ وَيُوسُفَ النَّبِيَّ: ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ انْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ (سورة يوسف).

﴿ والرسل ﴿: جَاءَتْ صَفِيَّةَ بِنْتَ حَبِيٍّ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ تَزْوُرُهُ وَهُوَ مُعْتَكِفٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي الْعِشْرِ الْعَوَائِرِ مِنْ رَمَضَانَ، فَتَحَدَّثَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً مِنَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ قَامَتْ تَنْقَلِبُ فَقَامَ مَعَهَا النَّبِيُّ ﷺ يَقْلِبُهَا، حَتَّى إِذَا بَلَغَتْ بَابَ الْمَسْجِدِ الَّذِي عِنْدَ مَسْكَنِ أُمِّ سَلَمَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ مَرَّ بِهِمَا رَجُلَانِ مِنَ الْأَنْصَارِ فَسَلَّمَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ نَفَذَا فَقَالَ لِهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: عَلَى رَسَلِكَمَا، إِنَّمَا هِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حَبِيٍّ، قَالَ: سَبَّحَانَ اللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَبَّرَ عَلَيْهِمَا مَا قَالَ، فَقَالَ ﷺ: إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ ابْنِ آدَمَ مَبْلَغُ الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قَلُوبِكَمَا ﴿ (رواه البخاري).

٢- ثم إن ما في القرآن الكريم من سر الصالحين والمفسدين وتعليقه على فصن الصالحين والطالحين هو تغذية للرأي العام، وتدريب للضمير الاجتماعي على الحكم الرشيد.

• ثالثاً: تربية الضمير الديني :

كما حرص الإسلام على تربية الضمير الديني وتقويته وذلك بأمرين: ﴿ يحافظ الضمير بتقوية شعوره بجوانب العقيدة والإيمان بالله واليوم الآخر، من قدرة الله وعلمه ونعمته ونقمته وفضله وعدله، يمتلئ قلب المؤمن بالخوف من الله والرجاء فيه والحب له.

﴿ تدريب الضمير على ذلك بإلوان من العبادة والترغيب والترهيب مثل: قوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنِ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جِازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٣٣) .

- ✓ وفي سورة الحج: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُدْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَيَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢) ﴾ .
- ✓ وفي سورة الحشر: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَئِزُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) ﴾ .
- ✓ وفي سورة العنكبوت: ﴿ أَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥) ﴾ .
- ✓ وفي سورة البقرة: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥) وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦) ﴾ .

• الأخلاق الفاضلة ضرورة في حياة الإنسان :

- الأخلاق الفاضلة ضرورة في حياة الإنسان ضرورة اجتماعية، وضرورة حضارية، وضرورة إنسانية، وضرورة دينية:
- ◀ فهي ضرورة اجتماعية: بمعنى أنه لا يستغني عنها أي مجتمع من المجتمعات، فلا يمكن لأفراد المجتمع أن يعيشوا متفاهمين متعاونين سعداء ما لم تربط بينهم روابط متينة من الأخلاق الفاضلة، فإذا ضعفت هذه الأخلاق أو انعدمت تفككت الروابط في المجتمع، وتخالف أفرادها وتناهما المنافع والمصالح، وحل بينهم التفكك والدمار.
- ◀ وهي ضرورة حضارية: بمعنى أن أي حضارة راشدة لا تقوم إلا على أساس الأخلاق الفاضلة، وتساءل:
- ✓ كيف يمكن الثقة بالعلوم والأخبار والشهادات بدون فضيلة الصدق ١٩
- ✓ وكيف يمكن للناس أن يعيشوا آمنين على دمائهم وأموالهم وأعراضهم دون فضيلة الأمانة ١٩
- ✓ وكيف يمكن لأمة أن تبني المجد دون فضيلة الشجاعة للدفاع ضد المعتدين ١٩
- ✓ وكيف يتأتى لأمة أن تبني حضارة راشدة بدون فضائل الأخوة والتعاون والمحبة والعدل ١٩
- ✓ وهكذا .. كيف يمكن لإنسان أن يترقى في منازل الكمال إذا كانت تسيطر عليه الأنانية وتمنعه من البذل والعطاء ١٩
- لقد علمتنا حقائق التاريخ والتجارب الإنسانية أن القوة المعنوية والأخلاق الفاضلة بينهما ترابط واطراد، وجودا وعدما، وقوة وضعفا، فإذا قويت الأخلاق قويت القوة المعنوية وهكذا .. ومن هنا قال الشاعر :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهب أخلاقهم ذهبوا

ذلك لأن النظم الإسلامية مثل الأسرة والقرابة والأخوة تمثل الروابط والأخلاق الفاضلة، تمثل المعاهد التي تنعقد عليها هذه الروابط.. فإذا انعدمت الأخلاق أو ضعفت انعدمت المعاهد التي تتمسك بها الروابط الاجتماعية، وتفكك المجتمع، وأصبحت الأمة التي تتكون من الملايين قوتها قوة أفراد مختلفين لا قوة أمة واحدة، واختلاف الأفراد يجعل قوتهم مضافة إلى حساب أعداء الأمة.

« وهي ضرورة إنسانية: بمعنى أن الناس لا يمكنهم أن يتمتعوا بحياة إنسانية خالصة إلا إذا تمسكوا بفضائل الأخلاق، وابتعدوا عن المعاصي والردائل الخلقية، لأنها قاذورات، ولأنها تمسح الفطرة الإنسانية ولا تليق بكرامة الإنسان.

✓ فهي قاذورات: وقد أشار الحديث الذي رواه الطبراني وورد في مسند الشاميين عن أبي أمامة رضي الله عنه « أن رجلاً أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله ائذن لي في الزنا ! فصاح به الناس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: قربه، فدنا حتى جلس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: أتجبه لأمك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم، فقال: أتجبه لابنتك؟ قال: لا، قال: وكذلك الناس لا يحبونه لبناتهم، لأخواتهم، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على صدره، فقال: اللهم كفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه » .

وفي وصية القرآن الكريم لأوصياء اليتامى قال سبحانه في سورة النساء: ﴿ وَلِيُخْشِرَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٩) ﴾ .

✓ وهي تمسح الفطرة الإنسانية وفي ذلك يقول سبحانه في سورة الأعراف: ﴿ وَأْتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨) ﴾ . ويقول في سورة المائدة: ﴿ وَأْتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَنْ بَسَطْتُ إِلَى يَدِكَ لَتَقَتِّلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لَأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٣٠) فَبِعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورَايُ سَوْءَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُورَايُ سَوْءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) ﴾ .

وقد روى ابن ماجه في سننه بسند صحيح عن سهل بن سعد رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ﴿ يكون في آخر أمتي خسف ومسح وقذف ﴾ (السلسلة الصحيحة: ج٤، ص٣٩٤).

✓ وهي لا تليق بكرامة الإنسان: وفي ذلك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: « نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم يعصه » .
 ◀ وهي ضرورة دينية: بمعنى أن الناس لا يمكنهم أن يتمتعوا بحياة دينية خالصة إلا إذا تحلوا بفضائل الأخلاق، أما رذائل الأخلاق فهي معاص والإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة، والإصرار على الكبيرة يجعل صاحبها على خطر عظيم.

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَأَنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ فَقَالَ بِهِ هَكَذَا ﴾ قَالَ أَبُو شَهَابٍ بِيَدِهِ فَوْقَ أَنْفِهِ .

• موقف أعداء الإسلام من الأخلاق الإسلامية :

لقد عمل أعداء الإسلام على الكيد للأمة بالعمل على إفساد أخلاق المسلمين ليعثروا قوتهم، ويفتتوا وحدتهم، واتبعوا لذلك الوسائل الآتية :

◀ التشكيك في العقيدة: علموا أن الإيمان بالله واليوم الآخر هو المنبع الأساسي للأخلاق فعملوا على أن يسدوا عيونه ويقطعوا شرايينه بمحاولة التشكيك في العقائد الدينية.

◀ المكر بالعلوم الإسلامية: وعلموا أن مصادر الشريعة وفهمها الصحيح هو الذي يغذي الإيمان بما يتطلبه من معارف، فعملوا على المكر بالعلوم الإسلامية، من حجب لها، أو تلاعب بمفاهيمها، أو تضيق على علماء المسلمين.

◀ إشاعة الانحلال الخلقي: وللإفساد العملي صور كثيرة مثل تصيد المبعوثين من أبناء المسلمين، وإحاطتهم ببيئات فاسدة للتأثير على أخلاقهم، وبعد عودتهم لبلادهم أثروا في بيئاتهم، كما حاولوا التسلل إلى بلادنا عن طريق وسائل الثقافة والإعلام: القصة بأنواعها، المجلة، المواد المذاعة أو المرئية. ليفسدوا أخلاق المسلمين عن طريق عدوى البيئة أو إثارة الشهوات والفتن.

◀ الغزو الفكري: بالعمل على إفساد الأفكار والمفاهيم والترويج للفلسفات الباطلة عن طريق المنجزات الحضارية، وبذلك يدخلون السم في العسل.

• عناية الإسلام بتزكية النفس :

لماذا أهتم الإسلام بتزكية النفس أكثر من اهتمامه بالسلوك الظاهر؟
 ◀ لأن الأصل في السلوك الظاهر أن يكون تعبيرا صادقا عن أحوال النفس والقلب، لكنه قد يعتريه النفاق أو الرياء فلا يعبر بصدق عن أحوال النفس والقلب. فإذا كان السلوك يخالف ما في القلب فهو النفاق، وإذا كان لا يخالفه ولكنه يقصد بالعمل إرضاء الناس فهو الرياء.

◀ والمراد بتزكية النفس تطهيرها من نزغات الشر وإزالة حظ الشيطان منها وتمنية الاستعداد للخير فيها فإذا تزكت النفس تهذبت طباعها، وإذا تهذبت طباعها أمكن غرس الفضائل فيها، وبذلك يصلح السلوك الظاهر والباطن جميعا.

لماذا لا يهتم الإسلام بتهديب السلوك الظاهر فقط ؟

- « لأن السلوك الظاهر قد لا يكون تعبيراً صادقاً عن أحوال النفس والقلب، فهو بناء على غير أساس، فيكون عرضة للتصدع والانهايار.
- « ولأن الله تعالى في مراقبة أعمال العباد ينظر إلى قلوبهم ونفوسهم، وقد روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ ﴾ .
- « ولأن قيمة الأعمال عند الله تعالى وجزاءها عنده يكون على قدر قيمة نية الفاعلين لها، وفي البخاري قال رضي الله عنه : ﴿ إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ﴾ ، وفي سنن أبي داود بسند صحيح : ﴿ فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ ﴾ .
- « ولأن القلب هو مكان التقوى، وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قلبه وقال: ﴿ التَّقْوَى هُنَا ﴾ في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه .

• وسائل تزكية النفس :

- ١- الإيمان والعمل الصالح :
- وهما الوسيلة الأهم لتزكية النفس، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة منها:
- « وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ (سورة العصر) .
- « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٩) ﴾ (سورة يونس) .
- « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) ﴾ (سورة مريم)
- « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨) ﴾ (سورة الكهف).

٢- التقوى والبعد عن الفجور :

التقوى والبعد عن الفجور: فقد ربط القرآن الكريم تزكية النفس بالتقوى والبعد عن الفجور وتدنيسها بالمعاصي، قال تعالى في سورة الشمس: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (١٠) ﴾

٣- العمل الخالص الصادق :

العمل الخالص الصادق: قال تعالى في سورة الليل: ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى (١٤) لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى (١٥) الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى (١٦) وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى (١٧) الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (١٨) وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١) ﴾ . وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠) ﴾ .

وفي شعب الإيمان عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْصِنِي، قَالَ: ﴿ أَخْلِصْ دِينَكَ يَكْفِيكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ ﴾ . وفي شعب الإيمان في خبر أبي هريرة رضي الله عنه : يَغْفِرُ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِحْلَاصِ ذُنُوبَهُمْ ، لَا يَتَعَاطَمُ عَلَيْهِ ذَنْبٌ أَنْ يَغْفِرَهُ ، وَلَا يَغْفِرُ الشُّرْكَ .

٤- عمل بعض الطاعات سبب في تطهير النفس من المعاصي :

عمل بعض الطاعات سبب في تطهير النفس من المعاصي: قال تعالى في سورة التوبة: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤)﴾ . وقال في سورة هود: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبُنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)﴾ . ومن ذلك الكفارات بكل أنواعها .

٥- التربية الصالحة :

وقد كانت من مهمات الرسول ﷺ تزكية نفوس أصحابه بالتربية، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (١٦٤)﴾ .

وفي سورة البقرة: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (١٥١)﴾ .

• موقف الإسلام من الدوافع النفسية :

إن الإسلام لم يأمرنا بکبت الغرائز وحرمان النفس من تلبية الدوافع النفسية ولم يجعل ذلك الکبت أو الحرمان فضيلة خلقية وإنما وجهنا إلى ضبط تلبية هذه الغرائز ويتلخص الضبط:

- ◀ بتحريم ما فيه ضرر للفرد أو المجتمع .
- ◀ والترغيب بترك ما لا مصلحة فيه .
- ◀ وبالتقليل من الترف المبطر للأنفس المفسد لها .

وهذا الضرر الذي جعله الإسلام سبباً في الضبط والتحريم، إما أن يمس الدين في عقائده أو عباداته، أو يمس العقل، أو الصحة النفسية، أو الجسمية، أو يمس العرض، أو المال.. لأن حماية هذه الأمور تعرف بمقاصد الشريعة الخمسة: حفظ الدين والعقل والنفس والعرض والمال.

وتطبيق هذه الضوابط على الغرائز المتعددة يكون على الوجه الآتي:

١ - فريضة طلب الطعام والشراب والملبس والمسكن :

فقد حرم الإسلام ما فيه ضرر من ذلك كشرب الخمر وأكل لحم الميتة أو الخنزير أو ما أهل لغير الله به ، كما حرم لبس الذهب والحريير للرجال واتخاذ أواني الذهب والفضة ونحو ذلك ، وفيما عدا هذا أباح الإسلام الأطعمة والأشربة والملابس واتخاذ المسكن وتأتيه بأنواع الأثاث من غير إسراف ولا تبذير : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا (٢٩) إِنْ رَيْكَ بَسِطَ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٣٠)﴾ (سورة الإسراء) .

٢- غريزة الجنس :

وقد أباح الإسلام الزواج بل حث عليه تلبية للغريزة الجنسية، كما جعله المتنفس الوحيد لهذه الغريزة، ولذلك حرم الزنا لما فيه من ضرر على الأنساب، وعلى المجتمع، كما حرم ما يؤدي إليه من الخلوة أو الاختلاط أو السفور أو النظرة أو التبرج وهو إبداء الزينة للأجنبي.

٣- غريزة حب التملك :

كما جعل الإسلام من أسس النظام الاقتصادي صيانة الملكية الخاصة الحاصلة بطريق مشروع، وأوجب فيها حقوقاً مثل الزكاة وما يفرضه الحاكم عند الضرورة الملجئة.

٤- غريزة حب الزينة وتذوق الجمال :

وقد أباح الإسلام تلبية الدافع الفطري في حب الزينة والاستمتاع بالجمال الفني إلا ما علم فيه ضرر ما ، كالأوثان وتمجيد صور الأحياء أو تصويرها ووراء ذلك مباحث كثيرة.

وقد وسع الإسلام دائرة التذوق الفني كالمشاهد الطبيعية أو السياحية وغيرها.

وقد حرم الإسلام تصوير ما فيه روح إذا كانت مجسمة أو غير مجسمة ولكنها للتقديس، أو كانت فيها إثارة مثلاً ، أما لعب الأطفال أو صور ما لا روح فيه، أو صورة حفيظة النفوس وغيرها من الضرورات فلا شيء فيه إن شاء الله .

٥- غريزة طلب العلم والمعرفة :

وقد حث الإسلام على تلبية دافع طلب المعرفة والعلم، وأوجب طائفة ضرورية من العلم تتعلق بالدين أو خدمة الحياة الدنيا، قال ﷺ : ﴿ طلب العلم فريضة على كل مسلم ﴾ (رواه ابن ماجه وقال الألباني: صحيح).

وروى أصحاب السنن بطريق صحيح وألفاظ متقاربة عن أبي الدرداء ﷺ قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: ﴿ مِنْ سَلِكِ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طَرِيقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لَطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَفْضِرُّ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَائِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةَ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِظِّ وَافِرٍ ﴾ .

٦- حب العمل :

وقد حث الإسلام على تلبية الدافع إلى العمل بل أوجب منه ما يتصل بالدين كالعبادة أو الجهاد في سبيل الله أو نشر الدعوة، أو ما يتصل بحفظ الحياة، أو حماية المجتمع، أو بناء الحضارة. قال تعالى في سورة التوبة: ﴿ وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) ﴾ ، وقال في سورة النساء: ﴿ فليقاتل في سبيل

اللَّهُ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ

يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ﴿ السَّاعِي عَلَى الْأَرْمَلَةِ وَالْمَسْكِينِ كَالْمَجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ الْقَائِمِ اللَّيْلِ الصَّائِمِ النَّهَارِ ﴾ .

• الخاتمة :

• علاقة علم الأخلاق بالتربية :

(التربية) من ربا يربو ، إذا زاد ونما ، فهي تعهد الشيء ورعايته بالزيادة والتمية والتقوية ، والأخذ به في طريق النضج والكمال الذي تؤهله له طبيعته.

والتربية الإنسانية الكاملة هي التي تتناول قوى الإنسان وملكاته جميعها :

- ◀ تنمية لجسمة وحفظاً لصحته ، وهذه هي التربية البدنية.
- ◀ وتقويةً للسانه وإصلاحاً لبيانه ، وهذه هي التربية الأدبية.
- ◀ وتثقيفاً لعقله وتسديداً لتفكيره وأحكامه ، وهي التربية العقلية.
- ◀ وتزويداً له بالمعلومات الصحيحة النافعة ، وهي التربية العلمية.
- ◀ وترويضاً له على وسائل الكسب لعيشه ، وهي التربية المهنية.
- ◀ وإيقاظاً لشعوره بجمال الكون ومعاونة له على التعبير عن هذا الشعور ، وهي التربية الفنية.
- ◀ وتعريفاً له بحق المجتمع الذي يعيش فيه وبما فيه من نظم وقوانين ، وهي التربية الاجتماعية والوطنية.
- ◀ وتوسيعاً لأفق شعوره بالأخوة العالمية ، وهي التربية الإنسانية.
- ◀ وتوجيهاً مستمراً لأعماله على سنن الاستقامة حتى تتكون منها العادات الصالحة والأخلاق الحميدة الراسخة ، وهي التربية الخلقية.
- ◀ ثم تسامياً بروحه إلى الأفق الأعلى بإطلاق ، وهي التربية الدينية.

ولقد يذهب الظن بالناظر في هذا البسط والتقسيم إلى أن (علم الأخلاق) إنما يعني شعبة واحدة من بين هذه الشعب ، وهي شعبة التربية الخلقية ، وليس الأمر كما يوحي به هذا الظن ، فإن سلطان الأخلاق منبسط على وجوه النشاط الإنساني كلها ، لا يشذ عنه عمل تربوي ولا غير تربوي ، ولا يتفاوت في حكمه نشاط بدني أو عقلي أو فني أو أدبي أو روحي ، فالفنان الذي يجال في بفضه قانون الحشمة واللياقة ويهتك به ستر الحياء والعفاف يتصدى لمقت الضمير الحي ، وإن لم تؤاخذ قواعد الفن ، والعلم الذي يختار مادة تدريبه العقلي واللغوي للناشئين من أحاديث الرفث وأقاويل التحريض على الهجر والإثم ، يسيء من حيث يحسب أنه يحسن ، والمرشد الديني أو المبشر الذي يتوصل في الدعوة إلى دينه بوسائل الخداع والكذب ، أو بشيء من الإغواء بالمال أو الجاه أو غيرها ، يرتكب جريمة من أشنع الجرائم.

وهكذا سائر أنواع التربية وشعبها ، فإنها وإن اتخذت لها أهدافاً أخرى اشتقت لنفسها منها أسماء معينة، إلا أنها يجب أن تخضع في وسائلها وأساليبها وبواعثها لقواعد الآداب ، وأن تقيس ذلك كله بمقاييس الفضيلة، وإنما تمتاز (التربية الأخلاقية) من بين سائر الشعب بأن هدفها القريب وغايتها المباشرة هي

التدريب على السلوك الرشيد ، وتكوين الخلق الحميد ، فصلة علم الأخلاق بها أقوى وأقرب . فلننظر في كنه هذه الصلة .

« فأما القدر الذي لا خلاف فيه فهو أن علم الأخلاق هو أول الرسائل وأولها بعناية المربين ، لأنه هو المصباح الكاشف لمسالك الرشد والغي ، ولأنه هو المعيار الذي توزن به نوايا العاملين ويواعثهم ، فمن صادف سبيل الهدى مصادفة من غير قصد ولا شعور بالزام الواجب فيه ، كان مثله كمثل الذي يقضي بين الناس خبط عشواء وهو جاهل بما يقضي فيه ، فلا فضل له إن أصاب ، بل هو أحد القاضيين اللذين في النار ، كما جاء في نص الحديث الصحيح الذي رواه الترمذي في سننه عن ابن بريدة عن أبيه أن النبي ﷺ قال: ﴿ الْقَضَاءُ ثَلَاثَةٌ: قَاضِيَانِ فِي النَّارِ وَقَاضٍ فِي الْجَنَّةِ؛ رَجُلٌ قَضَى بِغَيْرِ الْحَقِّ فَعَلِمَ ذَلِكَ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ لَا يَعْلَمُ فَأَهْلَكَ حَقُّوقَ النَّاسِ فِي النَّارِ، وَقَاضٍ قَضَى بِالْحَقِّ فَذَلِكَ فِي الْجَنَّةِ ﴾ ، فالذي في الجنة رجل عرف الحق فقضى به ، والذي في النار رجل قضى للناس على جهل ، ورجل عرف الحق فقضى بخلافه .

« وأما القضية التي اختلفت فيها المذاهب الفلسفية منذ القدم: فهي أن العلم بالفصيلة هل يكفي في تحصيلها والتحقق بها ؟ وبتعبير آخر هل علم الأخلاق وسيلة في التربية الخلقية التامة ؟.

أجاب (سقراط) : أن نعم ، فإن من عرف أن الهدف الذي تنزع إليه فطرة الإنسان هو سعادته الحقيقية، وأن الفصيلة هي الطريق الوحيد الموصل إلى ذلك الهدف لا يمكن أن يخطئ طريقها ، ولا يتصور أن يسلك أحد سبيل شقاوته وهو عالم به طائع مختار في عمله ، فالأشرار وأراذل الناس لا ذنب لهم إلا جهلهم بحقيقة مقاصدهم ، أو جهلهم بتحديد وسائلها ، وعلاجهم إنما هو بتصحيح معلوماتهم لا بتقويم نواياهم وعزائمهم ، لأنهم لا ينوون إلا خيرا لأنفسهم ، ولكنهم يجهلون هوية هذا الخير ، أو يجهلون وسائله ، هكذا قرر مؤسس الفلسفة العلمية .

أما تلميذه (أفلاطون) فقد اختلفت عبارته ، فقرر في بعض مواضع من كتبه أنه ليس بالعلم وحده يصبح المرء فاضلا ، فإن الرجل قد يعرف الشر ويأتيه، ويعرف الخير ولا يفعل ، وأنه لو كانت الفصيلة تنتقل بالتعليم ، كما تنتقل العلوم من عقل إلى عقل بالأدلة والبراهين ؛ لاستطاع حكماء (أثينا) أن يجعلوا تلاميذهم فضلاء مثلهم ، وقال في موضع آخر: إن الفصيلة التي لا تحتاج إلى تعليم إنما هي الفصيلة الفطرية الموروثة ، التي لا تشعر بنفسها ، أما الفصيلة الحقيقية فهي التي تعتمد على معرفة الخير ونيته .

والنصوص القرآنية تؤيد ذلك ، قال تعالى في سورة الجاثية: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢٣) ، وقال في سورة الأعراف: ﴿ وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْنَا مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ (١٧٥) ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثلته

كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمَلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّ فَاُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ .

ومن تأمل كلا التفسيرين من قول (أفلاطون) لم يجد بينهما اختلافاً ، ولم يجد في واحد منهما تأييدا لقول (سقراط) : إن العلم بالفضيلة كاف في تحصيلها .

على أن مؤرخي الفلسفة يميلون في تفسير هذه المقالة إلى ما أشار إليه (أفلاطون) من أنه ليس المقصود بالعلم مجرد المعرفة التقنية ، أو الإدراك العقلي الجاف ، بل المعرفة التي تمتد من العقل إلى القلب ، وتصبح إيمانا عميقا ، وقوة ملهمة متحمسة . قالوا: ولا ريب أن هذا الضرب من العلم كاف في نجاح التربية وإثمارها للفضيلة ، حتى أن الذي يفضل السوء يبرهن بفعله على نقص في معرفته بالخير وإيمانه به .

ونحن وإن كنا نوافق على أن المعرفة وحدها ليس لها كبير جدوى إن لم يكن لها رفق من قوة الإيمان ، نرى مع ذلك أن ضم عنصرين غير كاف في تحقيق الفضيلة العملية ، وأن التربية الناجحة لا غنى لها عن توافر عوامل طبيعية وعوامل إرادية ، وأنه لا بد لها قبل كل شيء من إزالة الموانع والعقبات من طريقها ومن أخطر هذه الموانع البيئية السيئة القذرة الضارة ، التي لا ينكر أثرها في سلوك الناشئين ، كما أن منها الميول المعارضة والعوائد المخالفة في سيرة الناشئ نفسه . ثم يجيء بعد ذلك عوامل إيجابية نبه عليها خاتمة المحققين من فلاسفة اليونان . ونعني به المعلم الأول (أرسطو) . حين قرر أن الإنسان ليس عقلا فحسب كما زعم (سقراط) ، وليس عقلا وعاطفة وكفى كما ظن (أفلاطون) ، بل هو مع ذلك إرادة فعالة ، وعزيمة نافذة ، ينزعان بصاحبهما إلى عمل يبرز إلى الوجود ، ويرى ضوء الحياة . فهذه وحدة .

والثانية : أن هذا العمل حين يبرز إلى الوجود لا يكفي أن يقع مرة أو مرتين بل يجب أن يتكرر ويستمر حتى يصبح عادة ثابتة ، وخلقاً راسخاً ، كأنه طبيعة ثابتة ، فلا بد إذن من رياضة وتدريب على العمل بما نعلم ، وتلك هي حقيقة التربية العملية .

وأخيراً فليست الفضيلة عملاً ألياً تسخيراً تمجده نفس فاعله ، ويأباه طبعه ، بل هي عمل انبعاثي محبب إلى القلب ، حتى أن الذي يفعل الخير عادة ولكنه لا يجد في نفسه أريحية له ، ليس خليقاً بأن يسمى خيراً ..

وإننا لنجد مصداق هذه النظرات الدقيقة والسديدة في القرآن المجيد ، في مثل قوله تعالي في سورة النجم : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (٣٣) وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى (٣٤) أَعْيَنَدَهُ عَلِيمَ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى (٣٥) إِم لَمْ يَنْبَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَى (٣٧) أَلَا تَرَى وَزْرًا أُخْرَى (٣٨) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى (٤٠) ثُمَّ يَجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (٤١) ﴾ ، وقوله في سورة التوبة: ﴿ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمْ الدَّوَائِرَ

عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قَرِيْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قَرِيْبَةٌ لَهُمْ
سَبِّحْ لَهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) ، وقوله في سورة التوبة :
﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ
الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) ، وقوله في سورة
النِّسَاءِ: ﴿ إِنْ الْمُنَافِقِينَ يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا
كَسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيْلًا (١٤٢) ، وقوله في سورة
الحجرات: ﴿ وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيْرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَكِنَ اللَّهُ جَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيْمَانَ وَزَيْنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرِهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعُصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضَلَا مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٌ (٨) .

• المراجع :

١. ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم ١٤٠٩هـ: مصنف ابن أبي شيبة: تحقيق: كمال يوسف الحوت ، ط١ ، مكتبة الرشد ، الرياض .
٢. ابن الأثير الجزري، المبارك بن محمد ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م: جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ : ط٢ ، بيروت ، دار الفكر
٣. ابن حنبل، أحمد ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م: مسند أحمد بن حنبل: دار الدعوة ، استانبول .
٤. ابن كثير، إسماعيل ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م: تفسير القرآن العظيم: ط١ ، دار التراث ، القاهرة .
٥. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني ١٤٠١هـ/١٩٨١م : سنن ابن ماجه: دار الدعوة ، استانبول .
٦. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد: تهذيب الأخلاق: موقع المكتبة الشاملة ، قسم : الأخلاق والرفاق والأذكار .
٧. ابن منظور، محمد بن مكرم (د.ت) : لسان العرب: دار الفكر و دار صادر ، بيروت .
٨. ابن هشام (د.ت): السيرة النبوية: تحقيق: السقا وآخرون ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت .
٩. أبو ريان، محمد علي ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م: تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام: دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية .
١٠. الألباني، محمد ناصر الدين ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م: سلسلة الأحاديث الصحيحة : ط٤ ، المكتب الإسلامي .
١١. أمين، أحمد ١٩٧٤م: الأخلاق: دار الكتاب العربي ، بيروت .
١٢. البخاري، محمد بن إسماعيل ١٤٠١هـ/١٩٨١م: صحيح البخاري (الجامع الصحيح): دار الدعوة ، استانبول .
١٣. البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خالد بن عبيد الله العتكي ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م: البحر الزخار المعروف بمسند البزار: تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله : ط١ ، مؤسسة علوم القرآن ، بيروت و مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة .
١٤. البيهقي، أبو محمد الحسين بن مسعود ١٤١٧هـ/١٩٩٧م: تفسير البيهقي المسمى: معالم التنزيل في تفسير القرآن: تحقيق: النمر وآخرون ، ط٤ ، دار طيبة للنشر والتوزيع .

١٥. البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي (د.ت): السنن الكبرى: دار الفكر، بيروت .
١٦. البيهقي، أحمد بن الحسين ١٤١٠هـ/١٩٩٠م: شعب الإيمان: ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
١٧. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى ١٤٠١هـ/١٩٨١م: سنن الترمذي (الجامع الصحيح): دار الدعوة ، استانبول .
١٨. جاد المولى، محمد (د.ت): الخلق الكامل: مؤسسة الرسالة و دار قتيبة ، بيروت ودمشق .
١٩. الخازن، علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيعي: تفسير الخازن المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل: موقع المكتبة الشاملة .
٢٠. دراز، محمد عبد الله (ت/١٩٥٨م): دستور الأخلاق القرآن: ترجمة وتحقيق: عبد الصبور شاهين ، ط٤ ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، مؤسسة الرسالة بيروت ، و دار البحوث العلمية الكويت .
٢١. دراز، محمد عبد الله ١٤١٧هـ/١٩٩٦م: مختصر: دستور الأخلاق في القرآن: اختصار محمد عبد العظيم علي : ط١ ، دار الدعوة ، الاسكندرية .
٢٢. الدارمي، عبد الله بن عبد الرحمن ١٤٠١هـ/١٩٨١م: سنن الدارمي: دار الدعوة ، استانبول .
٢٣. الرازي، فخر الدين محمد ١٤٠١هـ/١٩٨١م: تفسير الفخر الرازي المسمى التفسير الكبير ومفاتيح الغيب: ط١ ، دار الفكر ، بيروت.
٢٤. زكريا، فؤاد ٢٠٠٤م: جمهورية أفلاطون: ط١ ، دار الوفاء لندنيا الطباعة ، مصر .
٢٥. الطبري، محمد بن جرير ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م: جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ط١ ، دار الفكر،بيروت .
٢٦. الغزالي، أبو حامد ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م: إحياء علوم الدين: ط٢ ، دار الفكر بيروت .
٢٧. كرم، يوسف ١٩٧٦م: تاريخ الفلسفة اليونانية : سقراط: ط٦ ، مطابع الدجوي ، القاهرة .
٢٨. مسلم النيسابوري القشيري، مسلم بن الحجاج بن مسلم ١٤٠١هـ/١٩٨١م: صحيح مسلم (الجامع الصحيح) : دار الدعوة ، استانبول .
٢٩. النسائي، أحمد بن شعيب الخراساني ١٤٠١هـ/١٩٨١م: سنن النسائي (السنن الكبرى): دار الدعوة ، استانبول .
٣٠. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: ط٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت .
٣١. يالجن، مقداد ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م: جوانب التربية الإسلامية الأساسية: ط١ ، مؤسسة دار الريحاني ، بيروت .

